

مكاوي سعيد

بيّاعين الفَرْح

حكايات وتأملات

دار العين للنشر

بيّاعين الفرح

حكايات وتأملات

مكاوي سعيد

المحتويات

ابني حرامي يا عالم!

حدثت هذه الواقعة منذ أشـــهر في باريس، بداخل مول تجاري كبير، كانت ســيدة فرنسية تتسوق وبصحبتها طفلها الصغير البالغ من العمر ســبع سنوات وجنسيته فرنسي- مصري، بحكم أن والده مصري الجنسية، وقد عاش هذا الطفل خمس سنوات من عمره في مصر حيث وُلد، ولظروف لا أهمية لذكرها طلّق والده أمه وسمح له بالسفر مع الأم حتى ينال تعليمًا متميزًا بشرط قضاء عطلته الدراسية في مصـــر، وتنازل الوالدان عن بعض الحقوق المالية في ســبيل الوصول إلى تســوية عادلة، وقد تزوج الأب المصري بمصرية، والأم الفرنسية بفرنسي، وصارت الحياة peace لكليهما.

وسط صالات المول التجاري الكثيرة لم تنتبه الأم لابنها بقدر اهتمامها بالتخفيضات، ثم لفتت نظرها أردية تناسب طفلها فنادته للقياس، لكنها بُوغتت بعلامات بنيّة على جانبيّ فم الطفل جعلته يبدو كدراكولا فور تناوله الدم الطازج، سألته عن سبب هذه العلامات، فارتبك الطفل وأجابها بتهتهة أنه رأى باكو من الشيكولاتة أعجبه فتناوله، وجُنّت الأم ثم سألته بصوت بارد مستفسرة عن أين ألقى بغلاف الشيكولاتة؟ ودلها عليه فالتقطت الغلاف بيد وباليد الأخرى قادته بعصبية تجاه الكاشير، لم تنتظر الأم تقلص الطابور أمام الكاشير وتقدمت بطفلها وآثار الجريمة على وجهه ويده، ثم باستعراضية شديدة دفعت قيمة الشيكولاتة، وخيّرت الكاشير بين اتخاذ الإجراء القانوني أو مسامحته، وسامحه الرجل فغادرت المكان بكبرياء مصنوع بين نظرات شرقية مستنكرة، وأوروبية معجبة من الواقفين في انتظار دورهم في الدفع.

وفي البيت، لم تسكت وتهمد لكن اتصلت بوالد الطفل المقيم في مصر، وأتاه الصوت مشوشا ونبرات الأم لا تكاد تبين لعلو صوتها، وفي الخلفية صوت بكاء طفله مما أقلق الأب، واستهلت المكالمة بأن ابنه لص وبأنها تنوي عرضه على طبيب نفسي، أو تخبر المدرسة بموضوعه حتى يجدوا طريقة لعلاجه، طبعا ثار عليها الأب ثم تماسك وظل يخفف الأمر بأننا في مصر نترك الأطفال يأخذون ما يريدونه من المحال، ثم يتصل صاحب المتجر

بالعائلة لدفع القيمة، وإذا كانت قيمة البضاعة زهيدة لا يسأل البائع عن قيمتها، ولم تقتنع الأم طبعا بهذا التلفيق لكنها لانت في النهاية واستجابت لمنح طفلها فرصة أخرى، ثم ناولت الطفل السماعة ليكلم والده وكان ينهنه وهو يتأسف ويبدي الندم، وعندما غابت امه عن نظره همس لأبيه: بابا أنا عايز أرجع.. أنا مش زي دول يا بابا.. أنا خايف من نفسي!

هذه الأم الأوروبية ليست حالة فردية، فهم تربوا على ذلك واعتادوا وضع الفرد أمام الحكومة أو السلطة بمفرده لينال الجزاء، حتى لا يرتكب نفس الإثم مرة ثانية، بينما نحن في الشرق نجرّم هذه الأم فورا وقد نتخلص منها، ونسخر منها ونحن نقول إنها سلمت ابنها تسليم أهالي!

وهذا يدل على أن الاختلافات بيننا جذرية وليست ثانوية، ونحن في حاجة إلى أساتذة نابغين في علم النفس وعلم الاجتماع ليضعوا أياديهم على هذه الفروق ويدلونا على كيفية التعامل الأمثل معها.

وعلى فكرة، رأفتنا ورحمتنا بأولادنا تبدو أحيانا زائفة بدليل المثل الدارج "إن جالك الطوفان حط ابنك تحت رجليك"، يعني في حالات الخطر الشديد لا تهتم بإنقاذه، ولكن استخدم جسده للصعود عليه حتى تنجو! وهناك نكتة شهيرة عن بلد ديكتاتوري عربي، أوقفت لجنة أمنية سيارة يستقلها أب وابنه للتفتيش الروتيني، وبينما

كانوا يفحصون أوراق الأب رأى الطفل صورة الديكتاتور معلقة على راس الثكنة الأمنية فقال لأبيه ببراءة: مش هو ده الراجل اللي بتشتمه كل يوم يا بابا؟ التفت الأب بفزع تجاه الضابط وقال له: واللـه ده لا ابني ولا أعرفه.. تقدر تاخده.

تحليق فوري

وانـــا غض غرير، على رأي شـــاعر المهجـــر إيليا أبوماضي في قصيدته الشهيرة (لســـت أدري)، التي غناها العندليب الأسمر عبدالحليم حافظ في فيلم "الخطايا"، كنت لســـنوات لا أذكر عددها أقف متسمرًا قبالة محل كبير للأثاث الفاخر في شارع قصر العيني بالقرب من منزلي، لم يكن وقوفـــي لتأمل محتويات المحل تمهيدًا للشراء والاقتناء، فلا سني ولا إمكانياتي الإدراكية كانت تسمح لي بالتفكير في الأثاث والمستلزمات المنزلية أصلًا، لكني كنت أحدق عاليًا تجاه لافتة المحل، ثم أكمل ســيري بضع خطوات مبتعدًا عن المحل، وأعود مرة أخرى إلى أن ينتبه أحد عمال المحل لصبيانيتي

فيتحرك من غور المحل تجاهي أو يوهمني بذلك فأسرع الخطى ثم أعيد الكرة مرة أخرى.

كانت اللافتة الضخمة المثبتة فوق باب المحل التي تشغلني، مكتوبًا عليها بالحروف التي تعلمتها حديثًا في المدرسة "ماهوجني"، وهو نوع من الخشب اختاره صاحب المحل عنوانًا لمنتجاته - كما عرفت بعد سنوات - وهذا العنوان كان يثير خيالي جدًا، لأن الخطاط الذي كتب هذه اللافتة يبدو أن ميولًا استعراضية كانت لديه، وقد رأى أن هذه الكلمة البسيطة لن تسمح له بالإعلان عن موهبته لذا قرر أن يترك مسافة صغيرة بين كل حرفين، فصارت الكلمة هكذا "ما هو جني".

وقد ظننت في سـني الصغير تلك أن هنـاك جنيًا مرتبطًا بهذا المـكان، وأعتقد أن بعـض الآرائك الضخمة الموجـودة بالداخل موضوعـة لكي يجلس وينـام عليها، وبالرغم ممـا كانت تحدثه الحكايـات عن الجـن والعفاريت في وجداني مـن خوف وإثارة آنـذاك، إلا أن الفضول كان يغلبني ويقودني في أوقات متباينة إلى المحـل لعلني أجد الجني بعد إحدى جولاته التدميرية في الخرابات والمستنقعات، قد عاد ليسـتريح على أريكته الكبيرة داخل المحل، فأتحقق من شـكله وأعرفه وأتفاداه مستقبلا، لم أر طبعًا هذا الجن حتـى كبرت، والعجيب أيضًا أنني لم أخبـر أحدًا من زملائي في

المدرســـة بقصة الجن أو بالأفكار التي كانت تراودني بشـــأن هذا المحل، كأني في قرارة نفسي كنت غير مصدق لهذه الخرافات، أو لعلي كنت خائفًا من ســـخرياتهم. كما كانت هناك لافتة أخرى تثير إعجابي بنفس الشـــارع تخص محلًا لبيع الســـجاد، والمحل مازال موجودًا بلافتته حتى الآن رغم انتهاء نشـــاطه، كان اســـم صاحبه هو "جاد"، والخطاط كتب اللافتة وثبتها هكذا (ســـي جاد)، وعندما يوصـــد صاحب المحل بابه الصاج لن تبـــان إلا اللافتة التي عليها هذه الكتابة، وســـتتحير ماذا يبيع (سي جاد) هذا! وقد تعتقد أنه أحد الأعيـــان الذين فقـــدوا ألقابهم بعد ثورة يوليـــو، وعقب وفاة جمال عبدالناصر اســـتأجر هذه المكان وزينه بلقبه وأصبح يســـتقبل فيه أصحابه.

هذه الحكايات الموغلة في سنوات طفولتي أكسبتني عادة لم أستطع التخلص منها، وهي عادة الاهتمام بالكتابات المنسوخة على الشوارع والمحال والبنايات، ثم اختزان ما هو طريف وغريب ومثير في ذاكرتي للتندر به مع الأصدقاء وأحيانًا يتخلل بعض نسيج أعمالي، وما أختزنه قد أكون رأيته رؤية العين أو تساقط من أحاديث الأصدقاء أو الناس، ومن هذه الطرائف التي لم تزل عالقة بذهني اسم شارع بحارة شهير في حي الحلمية كنت أمر عليه بصفة يومية في أثناء دراستي بمدرسة (بنبا قادن الثانوية)، وهو شارع "جامع بلا مدنة ومدنة بلا جامع"، وهو اسم وصفي للجامع

الذي مئذنته في جانب آخر من الشارع وتبعد عن المسجد بعشرات الأمتار، ويربط كوبري خشبي صغير بين المئذنة والجامع! ويوجد أيضًا حتى هذه اللحظة محل حلاقة صغير في شارع التحرير بباب اللوق، تدل عليه لافتة مدهشة لأنها كبيرة، بحيث تكاد تأكل نصف واجهة المحل، ولأن المكتوب عليها عبارة "اللـه أكبر"، "اللـه"، في جهة و"أكبر" في الجهة الأخرى بخط معتدل الحجم، أما المكتوب في صدر اللافتة بحروف كبيرة الحجم وبخط كتبه غير محترف هو التالي (أتمنى لأعدائي كل ما يتمنوه لي) صاحب هذا المحل المدهش لم يهتم بكتابة اسمه باعتباره مالكًا للمحل، ولا بذكر مهنته حتى يجذب زبائن جدًا، وكان جّل اهتمامه الدعاء الطيب على أعدائه بأن ينالهم من الأذى ما يرغبون في أن يناله هو، طبعًا هذا بخلاف بعض لافتات محال الحلاقة التي تجتزء بعض آيات القرآن الكريم، مثل الذين يكتبون على واجهات محالهم (نحن نقص) ثم يرسمون مقصًا ويكتفون بذلك، وهي مخالفة تمامًا للنص القرآنى العظيم (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)، وكذلك محال بيع عصير القصب والتي تستخدم آيات القرآن وتضعها بكل الجرأة على واجهات محالهم (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً)، أو يضعون بعض عناقيد العنب وحبات المانجو والكمثرى المصنوعة من البلاستيك الرديء ويكتبون فوقها "ادخلوا جنتى"، أو المطاعم التي تكتب على

واجهاتها (أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ). ولا أدرى كيف يسمح لهم بهذا العبث وهذا الاجتراء على المقدس!

وعلى فكرة هذه الطرائف ليست موجودة عندنا فقط، ففي تونس مثلًا هناك جراج يعلق لافتة على مدخله تقول الآتى "الكراج يعمل ليلًا ونهارًا فقط"، وكأن هناك أجزاء أخرى في اليوم بالإضافة لليل والنهار.

وهناك أيضا وسط أهم شارع في العاصمة التونسية محل متوسط الحجم له واجهتان من الزجاج يقطعهما باب من الفراغ تتساقط من حلقه حبال ملضومة فيها خرز ملون على مسافات متساوية، وهي تتحرك للأمام والخلف مع دخول الزبون أو خروجه، والمكان يبدو نظيفًا جدًا ومن خلال الفراغات بين عناقيد الخرز تستطيع أن تتبين، حتى وأنت على مسافة، مقعدًا جلديًا وثيرًا له مساند بوسادات للذراعين والرقبة، اللافت للنظر أن اتجاه المقعد ليس صوب باب المحل، ولا صوب الحائط المواجه للمدخل لكن اتجاهه صوب الجدار الجانبي، وعلى زجاج المحل كتابة بالخط النسخ بأحرف كبيرة يمكن قراءتها من مسافة بعيدة، المكتوب عليها ببساطة عبارة صغيرة "تحليق فوري" للوهلة الأولى قد تعتقد أنه مكتب لحجز تذاكر طيران، تابع لشركة خاصة وأصحابها ذوو نفوذ، لأنها تتيح لك الطيران فورًا إلى أي جهة في العالم، لكن لو حدقت قليلًا في

الداخل سيظهر لك رجلًا قد انتهى منذ لحظات من غسل يديه في الحوض الذي في آخر المحل، ودهن أطراف بنانه بمجموعة من الكريمات، ثم اقترب من الرجل الذي يتربع على المقعد الوثير، وبدأ في تمسيد شعر الرجل تمهيدًا لتشذيبه وقصه، إنه محل حلاقة كسائر محال الحلاقة، لكن صاحبه نحت في اللغة وفنتها حتى توصل إلى كلمة "تحليق فورى" بدلا من الحلاقة بسرعة.

ومازلنا في تونس في قلب زقاق صغير نرى محلًا صغيرًا، حتى تدخله يستلزم عليك الهبوط عدة درجات إلى أسفل الشارع، هذا المحل أيضا من أصحاب اللافتات الظريفة، فلافتته مكتوب عليها "نحن نبيع النبيذ خلسةً"... خلسة يارجل؟! أمال لو حتبيعها في العلن ماذا ستفعل؟

الأوروبيون أيضا لهم نفس عاداتنا، وبخاصة إيطاليا التي تتشابه معنا في كثير من العادات. ذكر لي صديقي الفنان التشكيلي الكبير عادل السيوي، أن هناك محلًا في روما أعلاه لافتة مكتوب عليها الآتي "ألدو عنده بيض وفراخ" ويبدو أن (ألدو) كان يغلق محله كثيرا فيزعج الناس طالبي البيض والفراخ صاحب المحل المجاور، ما اضطره إلى وضع لافتة مكتوب عليها "باولو ليس عنده بيض ولا دجاج".

وبالمناسبة هناك طرفة عالمية تمس هذا الموضوع.. كان هناك

محلان كبيران متنافسان لبيع أصناف البقالة كافة، وكان بينهما محل صغير يبيع بقالة أيضا على قده.. كتب الأول على محله "أحسن محل في الشارع" وكتب صاحب المحل المتنافس الآخر "أحسن محل في المدينة"، ووضع صاحب المحل الصغير لافتة مكتوبًا عليها (المدخل الرئيسي).

في صحة الخيال

بدأ الأمر بوشاية صغيرة ثم انتشرت في الموقع كله، أحد أسطوات المحارة دس شيئًا مريبًا في حائط إحدى الوحدات الإدارية التي كانت تبنيها الشركة التي أعمل فيها، والوشاية كان مصدرها صبيًا صغيرًا عمره لا يتعدى السادسة عشر، كان يعمل مناولا للأسطى يجهز له المونة وراءه يدس لفة صغيرة في الحائط فتكتم الأمر، وبعد أن انتهى تشطيب هذا المبنى، انتقل الصبي مع الأسطى إلى مبنى آخر، والظاهر أنه تكاسل أو بجح في أستاذه، فما كان من الأسطى إلا أن وبخه ثم طرده من معيته، انطلق بعدها الصبي في التقول على الأسطى وبث الشائعة، حتى وصل الأمر إلينا في مقر

الشؤون الإدارية المعنية بمثل هذه الموضوعات، استدعاني المدير العام فوجدت أمامه مدير أمن الشركة والأسطى الذي ينكر الاتهام والصبـــي الذي يغالبه البكاء وهو يقســم بــأن كل ما قاله صحيح، انتحى المدير العام بمدير الأمن وبي وطلب منا التقصي عن صحة الموضوع وهو يكتم ابتســامته، توجهنا بربطـــة المعلم إلى المبنى المقصــود، وكان أضخم وأكبر مبنـــى في الموقع والذي خصصته شركة البترول التي تمتلك الموقع لكبار مديريها، ويتميز هذا المبنى بتصميم مختلف عن باقى المبانى العشـــرة التي تحيط به، ومنه أن كل وحدة فيه تحتل طابقا بالكامل وتشـــطيباتها على أعلى مستوى من التميز والبذخ، لحســـن حظنا كان الطابق الذي عناه الصبي هو الطابق الثالث ومن الســـهل علينا الصعــود إليه، لأن المصاعد لم تركب في المبنى بعد، واجهنا الحائط المشـــار إليه وكان قد انتهى تبييضه وضوء الشـــمس وهو يلامسه كان يضفي إليه بريقًا خلابًا، جعلنـــي لا أفضل ثقبه، بحثًا عن أوهـــام في عقل الصبي، ثم إعادة ترميمـــه، لأنه من الصعب إعادته إلى مـــا كان أو بلغة الصنايعية "يبقى مية واحدة"، لحق بنا نحات كي يثقب الجدار وأعدت ســـؤال الصبي، متمنيًا أن يتراجع عن اتهامه وأفهمته أننا ســنخلى ســبيله ولن نضره، ولكنه تمسك بالاتهام تمسك طفل بباكو شيكولاتة، وفي ذات الوقت كان الأســـطى ينكر الاتهام ويحاول الإفلات من قبضة مديـــر الأمن كي يبطـــش بالولد، وكنت ميالا إلى صف الأســـطى

فما مصلحته في دس لفافة في حائط مبنى؟ وما مكاســبه من ذلك؟ كما لم تكن عمليات الإرهاب قد تغولت أيامها.

أشار الصبي تجاه مكان بالحائط ثقبه النحات فلم يجد غير قوالب الطوب الأحمر، تهلل وجه الأسطى وسب الصبي الذي كان مرتعدًا، أشار الصبي إلى مكان ثانٍ خرقه النحات بأزميله وجاءت النتيجة سلبية تمامًا، علا صوت الأسطى وحاول إنهاء الأمر بينما لطش مدير الأمن الصبي على قفاه، وأمسكه من ياقة جلبابه كي يغادر الغرفة، بكى الصبي بمرارة وحرقة وكرر قسمه بأنه يقول الحقيقة، ربت كتف الصبي وطلبت منه أن يهدأ ويركز وسط اعتراضات الأسطى ومطالبه لي بألا استمع لهذا الولد الكذاب، أعطيت الصبي مهلة واحدة لإثبات صدقه، حدق الصبي في الحائط ثم أشار إلى نقطة أعلى بقليل، دق فيها النحات الأزميل فتناثرت على الأرض بقايا البياض والأسمنت وفتات الطوب الأحمر وبان من خلفها قطعة صغيرة جدًا من القماش، جذبها النحات بإبهامه وسبابته ووجهها ناحيتنا بين امتقاع وجه الأسطى وتهلل وجه الصبي، كانت لفافة مربعة الشكل وحجمها صغير جدا، انتقلت اللفافة من يد إلى يد حتى وصلتنى ووجدتها تشبه الأحجبة التي تستخدم في السحر والرقيات، فض مدير الأمن اللفافة ووجد فيها بضع وريقات صغيرة عليها كتابة بقلم الكوبيا بحروف غير واضحة المعالم تشبه الطلاسم، انهار الأسطى باكيا واعترف بأنه ليس دجالا ولا ساحرا، لكنه

وهو يعمل في هذا المبنى سمع أن الذين سيشغلونه سيكونون من رجال البترول الكبار، وعقب تلقيه الأوامر والتحذيرات بضرورة الاهتمام الشديد بهذا الطابق، خمن أن الذي سيحتل هذا الطابق لن يكون أقل من مدير عام أو نائب رئيس مجلس إدارة، ولما كان في خطته المستقبلية السفر إلى ليبيا بعد أن يتم تسليم هذا المشروع في نهاية العام، وكما هو معروف السفر خارج البلاد غير مضمون فقد يعود بعد سنوات خالي الوفاض، فقد فكر أن يضع هذه اللفافة بكلماتها الغامضة في الجدار، وعندما يعود بعد غيبته يتقصى عن من يحتل هذا الطابق ويجلس على الكرسي الوثير ورأسه بين الحين والآخر يرتاح على هذا الجدار، لو تأكد من أهميته، بسهولة يستطيع الاستعلام عن حياته ويقابله بأي طريقة في مكتبه، مدعيا أنه من أصحاب الخطوة ويعرف بعض الغيب، ثم يسرد بعض ما عرفه من حياة الشخص، ربما لن تخيل هذه الحكايات على الرجل، لحظتها سيقرأ بعض الأوارد ويدعي أنه غائب عن الوعي، ثم يخبر الرجل بـ"العمل" المعمول لتعطيل مسيرته من أحد المنافسين، وعندما يستخرج اللفافة سيصدقه المسؤول تماما وكذلك كل من كان يراقب ما يحدث، لأنهم عندما يفحصون الحائط سيجدون أنه لم تجر عليه أي تعديلات منذ تسلمه، وبذلك سيصبح المسؤول كالخاتم في إصبعه وسيجلب له زبائن آخرين، ومن ثم تتعدل حياته.

نهاية هذه الحكاية تمت بالاستغناء عن هذا الأسطى وترميم

الجدار ثم تسليم المبنى في الموعد المحدد للشركة صاحبة المشروع، لكني إلى الآن أتذكر هذا الأسطى متوسط التعليم في أوقات كثيرة، يعجبني خياله جدا، وتبنيه لفكرته التي نتائجها لن تحدث في الواقع القريب، ويعجبني أكثر أنه زرع مكافأة خدمته في جدار فيما لو لطشت الدنيا فيه، إنه شيد صرحًا هائلا من الخيال.. سيناريو دقيق يعجز بعض المحترفين عن التفكير في عمل يماثله، والدافع إليه الرغبة في البقاء فهي الحافز الأهم في حياة الإنسان، ومحبة في الخيال لا يسعني إلا إنهاء مقالي هذا بمقولة العالم الكبير "ألبرت أينشتاين": (الخيال أكثر أهمية من المعرفة).

آخر العنقود.. عيل منكود

على فكرة أنا لا أسـخر من المثل الدارج "آخر العنقود سـكر معقود" إنما لما تأملته توصلت إلى ما عنونت به هذا المقال، فالمثل الدارج مثل "فيمينسـت" خالص أي ينطبـق على المرأة وينتصر لها، فآخر عنقود الإنجاب من الإناث في واقعنا المصري هي على الأغلب فتاة محظوظة يتم تدليلها من كل الأسرة بدرجات متفاوتة.. الأم بشـكل خاص تدللها بشكل عجيب، فمهما كبرت لا تبعدها عن النوم في حضنها، وتجعلها لا تشـارك إخوتها البنات في الواجبات المنزلية المعتادة كالكنس والمسـح والغسـيل ونشـر الملابس في البلكونة أو السطح، وبالتالي لا ترسلها إلى السوق لشراء الخضار

ومستلزمات الطهي إلا فيما ندر، وإذا تعرض لها أحد إخوتها من الصبيان أو البنات الأكبر منها تنكل به الأم، وإذا ما كبرت البنت البكرية وطلبت للزواج، وافقت الأم بسرعة وسلاسة إذا ما كان طالب الزواج مناسبًا وقد تقدم له تيسيرات هائلة حتى يتم الزواج وهكذا تفعل مع الشقيقات الأخريات، وما إن يحل الدور على فلذة كبدها آخر العنقود، نجدها قد تصلبت وغالت في طلباتها وأطالت فترة الخطوبة وأجلت الزواج أكثر من مرة وتلككت للعريس حتى تبقى حبيبة قلبها أطول فترة ممكنة إلى جوارها، كما أن كل مظاهر الاحتفال التي صاحبت أخواتها البنات عند زفافهن ورحيلهن إلى بيت الزوجية يتغير طقوسها عند زفاف آخر العنقود وقد تقلب الأم الأمر إلى مناحة كبرى وهي تشاهد حبيبة قلبها على وشك مغادرة بيتها إلى بيت جديد.

أما آخر العنقود من الذكور فالأمر بالنسبة له مختلف تماما، فهو يعتبر "مرمطون" العيلة ويعاملونه معاملة الأسرى والعبيد.. بداية من كونه ملطشة لكل أفراد البيت خاصة إخوته الذكور.. كل من يمر بجواره يداعبه بالضرب على قفاه، أو زغده في رقبته، أو شد شعره، أو يطفئون عليه نور الغرفة ويرعبونه أو يشنكلونه، بحجة المزاح معه، وهذا الاضطهاد ليس مقصورًا على إخوته بل يشارك فيه الأب والأم، كأنه مصروف لهم على بطاقة التموين! الأم تكلفه بإيقاظ إخوته الكبار "وانت عارف طبعا أما يصحى الواحد منهم

غصب عنه هيعمل إيه في اللي صحاه!" هذا غير تكليفاتها السـرية له بالتجســس على أشــقائه الكبار وإبلاغها بما يفعلونه في غيابها "مكالماتهم التليفونية.. مذاكرتهم.. هل شاهد أحدهم يدخن أو يعاكس البنات؟".. بَاختصار تخلق منه "مرشد صغير" ولا تبالي إن اكتشف إخوته أنه واشٍ ونكلوا به، كما تلقي عليه بأوامرها بأن يرمي الزبالَة في السـلة اللي على السلم أو ترسله كي يستلف من الجيران شوية تـوم أو بصل.. وتجعله ينزل ببيجامة أو بجلباب وبالشبشـب لكي يحضـر لإخوته الملابس من المكوجي، أو يصلح فردة حذاء أخيه ويعملها لوزة عند الإسكافي.لأن الأخ بسلامته بيتكسف، ثم تربطه بجوارها في المطبـخ حتى تنتهي من رص البطاطس في الصينية التي ســتكلفه بحملها إلى الفرن لتســويتها والعودة بها.. وهي تلقي عليه بوصاياها العشر قبل إرساله، ثم تبرم له قطعة من قماش قديم وتأمره بأن يضعها على رأســه ويضع عليها الصينية بعد خروجها من الفرن، حتى يتقي رأسه سخونة الصينية فتجعله هذه اللفافة في منتهى المسخرة أمام زمايله من الصبيان، وتعد أمامه الأم عدد قطع اللحم في الصينية وتجعله مســؤولًا عن فقد اي قطعة منها لو طمع فيها وســرقها الفرّان، هذا بخلاف أعمال الســخرة التي يكلف بها في أيام شــهر رمضان، بداية من الوقوف أمام عربة الفول بالطبق الصاج، والانتظار أمام فرن الخبز حتى ينضج العيش، وعنما يعود لها بالعيش والفول تعطيه صينية لشراء الطرشي، وطابور انتظار

الطرشـــي في رمضان طابور مرعب كأنه لا يصح الصيام بغيره، ثم يأتي دور المشروبات ويا ويله إن انكسر الدورق الذي سيحضر فيه العرق ســوس أو التمر هندي، هذا بخلاف الحلو.. المتمثل في الكنافة والقطايف التي يكلف بشــرائها نيئة ومعها مستلزماتها من الحشو، وبعد كل هذا هل يسمع كلمة رضا عنه.. لا طبعا فأغلب ما يسمعه انتقادات تخص هبله وعبطه وأن الرجل ضحك عليه إما في الكمية أو السعر أو أعطاه شيئا بايظ أو بايت.

وحتى إخوته الكبار الذين سبق أن جاملهم عندما طلبوا منه أن يرد على أصدقائهم ويكذب لأجلهم ويخبر زمايلهم بأنهم غير موجودين بالمنزل، أو عمل لأجلهم "مرسال" غرام وأعطى خطاباتهم لبنات الجيران أو بنات الحارة ولم يفش سرهم، لا يحفظون له هذا الجميل، يخبرون والديه بكل ما علموا به مصادفة أو من خلال مراقبتهم له – لو تغيب عن المدرسة وذهب إلى السينما- أو لو أخذ علامة سيئة في المدرسة وأقسم لهم بأنه سيذاكر بشرط تجاهل الأمر.

هــذا هو آخر العنقــود من الذكور.. فهل أنا محق في تســميته بالمنكود؟



ضيف مفلوت اللسان

انحنى فجأة بجسده الضخم حاجبًا الهواء، فتهت في بنيانه العملاق، وانكمشت بجسدي الضئيل عاجزًا عن الانفلات، ومرتعدًا إلى حد عدم القدرة على البكاء، وتجمدت حين وضع كفيه الضخمين حول كتفي، وظل يتأملني بابتسامة، فرجعت هادئًا ساكنًا، وبدأت في التعرف على ملامحه، ثم حملقت بانبهار في نجماته الذهبية التي ترصع كتفيه، والذي يشعل شعاع الشمس ضوءها، وخطفت عيني الأشرطة الملونة الصغيرة التي تتدلى من صدره، وحين مددت يدي الصغيرة محاولا لمسها، تركني على راحتي حتى وصلت إلى نجماته وتلمستها، ثم بالقدرة الضئيلة الممنوحة لطفل في الخامسة

من عمره، حاولت خلع إحدى هذه النجمات، وفشلت، فازددت عنادًا، وكررت محاولاتي حتى بدأ يشعر بقرب نجاحي، لحظتها التقط بكفه العريض الضخم قبضة يدي التي تشبه ليمونة يانعة وثبتها جانبًا.. وعندما احتقن وجهي بالغضب، وهممت بالبكاء، مد يده الكبيرة إلى داخل جيب الجاكت السفلي، انتبهت لحركته وتابعته، ولفت نظري حزامه الأسود العريض وتوكته النحاسية التي جذبت يدي كالمغناطيس، لكني تراجعت، وأنا أرى قبضة يده تخرج من الجيب ببعض حبات ملبس "نادلر" أو عبوة بسكويت، ناولها لي وهو يقبل رأسي، ثم نهض، وتركني أفض غلاف هديته، وظللت لفترة منشغلًا بغنيمتي غير منتبه للظل الضخم الذي انزاح، ولا إلى التحذيرات الصوتية التي كانت تصاحب قبولي هديته من عينة (عيب- طب قول شكرًا أو ميرسي) والتي غالبًا ما كانت تصدر من أخي أو والدي.

حين كبرت قليلًا، ووصلت إلى منتصف المرحلة الابتدائية لمحني مرة من شرفة الدور الرابع، وأنا ألعب البلي مع زملائي في المدرسة، وناداني بصوت جهوري، وأمرني بأن أصعد إليه، كنت قد اعتدت عليه، وعرفت أنه زوج ابنة جارتنا التي تسكن في الطابق الرابع، وهو ضابط جيش وظروف عمله ومأمورياته تستلزم تغيبه طويلًا عن البيت، لذا أغلقت زوجته "ابنة جارتنا" مسكنهما، وعرضته للإيجار، وأقامت عند أمها، ومن هنا بدأ تردده

يزداد على بيتنا، وصار صديقًا لغالبية السكان، وأنا بداخل المصعد كنت في أشد الضيق، لأن نداءه حرمني من اللعب مع زملائي ولأنني لا اقدر على تجاهل أو عدم تلبية ندائه، لأن والدي أوصاني بهذا الرجل، وطلب مني مسايرته وعدم إغضابه.

وكنت أخشـــى أن يطلب منـــي صرف الأولاد الذيـــن يلعبون أمام البيـــت، بحجة أن أصواتهم تزعجه، وذلـــك لأنهم في الغالب لن يســـمعوا لـــي، خاصة أن بعضهم أكبر مني في العمر والســـنة الدراســـية، وقلت في نفســـي لو كان هذا طلبه، فســـأخبره بأني لن أواصل اللعب، وعليه أن يصرفهم من خلال سائقه الذي يظل نائمًا في السيارة حتى موعد نزوله، لكنه أدهشني بسؤاله المفاجيء الذي ألقـــاه في وجهي كالمحقق المحترف: إنتوا بتلعبوا بفلوس مش كده؟ نفيت برأسي باستنكار شديد، ربت على كتفي، وطلب مني الانتظار قليلًا، ثم عاد وبيده علبة خشـــبية صغيرة مطعمة بالصدف، فتحها فخطفت بصري عشـــرات البليات بزجاجها الملون المصقول الذي لم يخدشـــه بعد أسفلت الطريق، ثم أعطاني بضع نصائح في كيفية التصويب والتركيز، وقال أنه ســـيتابعني من أعلى ليتأكد من أنني أتبع توجيهاته، وأربح، لفترة طويلة كانت هذه الهدية البسيطة بمثابة أروع كنوز الدنيا.

كانت درجاتي في نهاية المرحلة الابتدائية ليست جيدة كفاية

لكي تدخلني مدرسة إعدادية قريبة من بيتنا، وداخ أبي جريًا وراء وساطات تسمح لي بالنقل من المدرسة البعيدة إلى مدرسة الحي، فقد كان يضطر إلى مرافقتي يوميًا ذهابًا وإيابًا إلى المدرسة الأخرى، لخوفه الشديد من أن أتيه أو أتعرض لأذى سيارة مسرعة، وكنا عائدين مرة من المدرسة، وقابلنا هذا الضابط الذي، بعدما استجوبني عن سير الدراسة أخبره والدي بمشكلتي المعقدة، ابتسم الضابط وطلب منا انتظاره في الصباح، ثم ذهب معنا أولا إلى المدرسة القريبة التي كانت ترفض انتقالي إليها، عندما شاهد ناظرها البدلة العسكرية والأشرطة والنياشين.. قبل فورًا انتقالي إلى المدرسة، وكتب بخط يده طلب الانتقال، وأعطانا خطابًا لسحب ملفي من المدرسة الأخرى، ثم طلب من والدي على استحياء أن يقدم شهادة مرضية، تفيد بأن بنيتي ضعيفة لا تسمح لي بالذهاب إلى مدرسة في حي آخر، وتم كل هذا بسرعة وبساطة وسهولة مما يسر لي الذهاب إلى المدرسة بمفردي والعودة كذلك، وتجنب سخرية التلاميذ من فتى الإعدادية الذي مازال يصطحب والده معه في "الروحة والجاية"، وهذا ما قربنا من هذا الرجل بعدها، وسمحت له بالتقرب مني كذلك، وعزز أبي ذلك عندما ذكر لأمي أن كون الضابط لم ينجب زرع الله في قلبه حب الأطفال، وتركاه يشرح لي بعض الدروس في حال وجوده بالمنزل، أو يصطحبني معه للتنزه على النيل على متن مركب صغير يجدف صاحبه بساعديه

في همة وهو يختلس النظر إلى الباشا "المنجعص" على مقدمة المركب يغرف بيده من ماء النيل، ويشرب باستمتاع، وهو يحكي لي قصة خرافية عن بوابة الكنوز التي ستفتح لمن يشرب من النيل وهو نائم.. وعندما أسأله بفضول: هل النيل ينام مثلنا؟ يبتسم، ويقول لي بملامح صادقة: نعم ينام مرة واحدة في العام لمدة نصف الساعة، كما قال القدماء، كنت أستمتع بالحكاية، لكن لا أطاوعه في الشرب من النيل، وكان أحيانًا يتدخل صاحب المركب، فيحكي لنا أسطورة أخرى، لكن بمجرد أن يبدأ بها يسكته الضابط بإشارة من يده، ويكمل هو الأسطورة، بينما المراكبي يجدف، وهو يوهمنا بأنه يستمتع أيضًا بالحكي.

صارت صداقتنا أعمق في مرحلة الثانوية العامة، وبدأت أتعرف على الكتب التي في مكتبته، واستعرت أعدادا من مجلة البوليس المصري الشيقة ومجموعة من ألغاز أجاثا كريستي وآرسين لوبين.. هذه النوعيات هي التي شدتني من مجموعات كتبه الكثيرة التي كان أغلبها كتب تتناول الحروب بالإضافة إلى الكتب القانونية.. وبدأت أرتاد معه أندية الشرطة والقوات المسلحة، وسمح لي بدعوة أصدقائي معي في المناسبات.. وكان يغريني بدخول إحدى الكليات العسكرية، لكني خذلته، ودخلت القسم الأدبي، حينها طلب مني أن أدخل كلية الشرطة، غير أني خالفته، ودخلت كلية التجارة.

في عامي الأول بالكلية.. زارنا ضيف لأول مرة في بيتنا.. كان متزوج حديثًا من ابنة عمي، وقد حضرنا فرحه، لكنه لم يزرنا مطلقًا، زوج ابنة عمي هذا كان ضابطًا بالجيش برتبة نقيب تصادف أن التقى بجارنا الضابط الكبير الذي أصبح الآن مقيمًا بالبيت بعد انتقاله للخدمة بالقاهرة.. عقب العشاء الذي أقمناه لابنة عمي وزوجها، في أثناء المسامرة ذكر زوج ابنة عمي أنه رأى الضابط الكبير، وأنه يعرفه، لأنه خدم معه، وهو ملازم.. ثم ذكر شيئًا سيئًا جدًا عن جارنا الضابط الكبير.. قال إنه كان مسؤولًا عن إحدى النقاط الحدودية.. وكان مرتشيًا يسمح للمهربين بالمرور، ثم عمل كمينا له، وضبط متلبسًا، ثم أوقف عن العمل، وبعد وساطات كثيرة نقوه إلى إحدى المكاتب الإدارية بالقاهرة.. وجمنا كلنا أنا وأبي وأمي وأخي، ثم تركت لهم الغرفة مستاءً، ودخل أبي يسترضيني بعد انصراف الضيف مع ابنة عمي.. وقال لي أبي ألا أهتم بما قاله الضيف، فهذه صفات بعض الموظفين الذين يحسدون رؤساءهم.. ولحقت بي أمي، وأخبرتني بأنها لا تصدق هذا الشخص الأحمق الذي لم تره إلا مرتين في حياتها، بينما تثق بالجار، لأننا كلنا نعرفه وعاشرناه، وتحققنا من حسن سيره.

عدى هذا الموضوع بخير، لكني امتنعت عن زيارة ابنة عمي هذه تمامًا، وظللت مع الضابط الكبير أبثه همومي وشكواي من الدراسة وعلاقات الشباب المراهقة، وأستمع إلى شكواه المرة من

حالة زوجته المرضية التي تتردى يوما وراء يوم، وأتعاطف معه تمامًا، وهو يكاد يبكي حزنًا عليها، ويتمنى أن يجنبها اللـه الآلام التي تداهمها والتي لا يتحملها البشر، وكنا فعلًا نستيقظ كل بضعة أيام على صوت صرخات الخادمة التي تعتني بزوجة الضابط فنهرع إلى الشقة، وفي ظننا أن السيدة قد توفيت، ثم يجيء الطبيب، ويعطيها حقنة فتفيق.. أو تحضر سيارة الإسعاف، لكن سرعان ما تعود بها، وقد خفت آلامها بعض الشيء.

وذات ليلة شتوية.. تواصل صراخ الخادمة حتى اقتحمنا باب الشقة، ووجدناها خلفه تلطم خديها.. جرينا تجاه السيدة.. كانت على حالتها المعتادة.. نصف جسدها مسجيٌّ على الفراش، وظهرها مستند إلى صدر السرير.. عاجزة عن النطق بفعل الشلل الذي أصابها منذ سنوات، كان الصراخ مازال يتواصل، وهناك جثة في الغرفة الأخرى لم تجد من يهتم بها إلا حين نبهتنا الخادمة، كان المتوفي هو حضرة الضابط الذي ظل لسنوات يهرع إلى غرفة زوجته ليطمئن عليها، بعد أن يداهمه الكابوس الليلي بأنها ماتت.

عقب تغسـيله ودفنه سـرت شـائعة بين مجموعة صغيرة من المقربين، وقبل الأربعين كان أغلب سـكان الحي قد عرفها، وفي الثانويـة المقامة على روح المرحوم كان الجميع قد تأكدوا من أنها حقيقية، وليست مجرد شائعة. الذين خلعوا عنه بيجامته قبل تغسيله

وجـــدوا في جيبه ورقةً مبايعَةً بكل أملاك السـيدة زوجتَه، وعليها ختّمها وبصمتّها، فقد كان المرحوم ينوي تسجيل المبايعة في صباح اليوم التالي، ومات بينما لم تجف آثار حبره من على إبهام زوجتَه..
لحظة معرفتي بذلك تذكرت الضيف مفلوت اللسان، وسكت.

عقاب بأثر رجعي

كان يومًا شتويًا بامتياز، البرد قارص والشمس غائبة ودوائر من مطر في حجم حبات المشمش تتساقط بتلاحق واندفاع، مظلات الكافيتريا المهترئة فشلت في حمايتنا من البلل وقذارة قماشها لوثت ملابسنا عندما امتزج المطر بترابها العتيق، هرعنا إلى المبنى الذي به مدرجات الدراسة، طابقه الأول به فسحة كبيرة أمام مدرجيه الاثنين الأيمن والأيسر، تكتلنا طلبة وطالبات أمام أبواب المدرجين، ساد الصخب والضجيج المكان ولم يتوقف إلا بمرور نصف ساعة وحلول موعد بدء المحاضرات، كان المطر قد خفت قطره بعض الشيء فغادر بعض الطلبة وهم يحمون رؤوسهم بالصحف

وينطلقون تجاه الكافيتريا، بقيّة الطلبة دخلوا إلى المدرجين إما اهتمامًا بالدرس أو اتقاءً لصحتهم من هذا الطقس السيئ.

دخلت إلى مدرجي كي أتابع درسًا ثقيلًا بالنسبة لي لسابق رسوبي في مادته عامين متتاليين، كان الدرس خاصًا بمادة نظرية اسمها (التمويل) مكتوبة بلغة جافة ومليئة بالإحصائيات فكرهتها، ولم أبذل جهدًا في مذاكرتها، لكنني هذه المرة قررت أن أنجح فيها بأي ثمن حتى لا يصبح مصيري الطرد خارج الكلية، دخل أستاذ المادة المدرج وأغلق الساعي خلفه الأبواب حتى لا يدخل أو ينصرف أحد من المحاضرة، أمسك الأستاذ بـ"طبشورة" وكتب عنوان الدرس على "السبورة"، ثم تابع كتابة عناصر الموضوع الذي سيحدثنا بشأنه، كان موقعي في الصفوف الأولى لضعف نظري وعدم رغبتي آنذاك في ارتداء نظارة وأنا حَدَث، بينما الأستاذ يكتب وقف طالب كان يجلس أمامي وبدا مرتبكًا، أنهى الأستاذ كتابته ودار بجسده فوجد الطالب واقفًا، ودون أن يسأله عن سبب وقوفه "شخط" فيه ونهره، فجلس الطالب في خجل شديد، كانت المنافذ الزجاجية المتراصة في أعلى المدرج قد بدأت تسمح لأشعة الشمس بالدخول واشرأبت أعناق الطلبة إليها، أعتقد أن بعضهم ممن لاذوا بالمدرج خوفًا من المطر ندم وتأسف وهو يرى الجو يعود صحوًا بالخارج، وسيُحبس ساعتين بعد أن أُغلقت أبواب المدرج.

بدأ الأستاذ محاضرته وهو يجلس خلف المنضدة التي تتصدر المسرح، والميكروفون ثابت على قاعدته أمامه يتلقى كلماته الهادئة ويعيدها إلينا هادرة، ثم تجلى الأستاذ في محاضرته ونهض كعادته ممسكًا بالميكروفون في يده وتخلى عن مكتبه وهو يقترب من حافة المسرح يلقي درسه من مخيلته، ويروح ويجيء على الحافة كالمطربين الذين يستعرضون مهاراتهم، وفي لحظة ما قرر أن يُكمل شرحه وهو ثابت في مقدمة المسرح- أمام الصف الذي أجلس فيه بالضبط- كان الميكروفون بيده يتحرك بسرعة يمينًا وشمالًا ثم يتوقف للحظات أمام فمه، وكانت أشعة الشمس المتسللة من أعلى تصطدم بجسد الميكروفون الفضي فتتناثر ومضات ذهبية في اتجاهات شتى، ثم نهض الطالب الذي أمامي والذي سبق أن نهره وسخر منه الأستاذ، لكن في هذه المرة كان بيده مسدس عريض صوّبه بسرعة شديدة تجاه الأستاذ وأطلق منه طلقة واحدة.

كان صوت الطلقة مدويًا وأعقبه صراخ هستيري من الطالبات وإغماءات من شباب الجنسين، بينما نجح الطلبة الذين يجاورون الطالب المعتدي في الإمساك به وإفلات المسدس من يده، هرعنا تجاه الأستاذ الذي كان قد سقط أرضًا، لكن أغلبنا لم يتمكن من رؤيته أو معرفة مدى إصابته، لكننا توقعنا عدم نجاته لقرب المسافة التي أطلقت منها الرصاصة.

كانت هذه أول مرة في حياتي أرى فيها محاولة قتل وأرى مسدسًا حقيقيًا، وكان ذلك شيئًا مذهلًا ومخيفًا بالنسبة لي في ذلك الوقت، ولزملائي أيضًا الذين شهدوا الواقعة، جاءت سيارات الإسعاف والنجدة على الفور وحملوا الأستاذ إلى المستشفى والطالب المعتدي إلى قسم الجيزة.

قبـل مغادرتنـا للمدرج كنا قـد تأكدنا من نجاة الأسـتاذ عقب أن رأيناه يقف شـاحبًا وممتقعًا وطبيب الإسـعاف يفحص جسـده ويطمئنـه، في مصادفة تحدث مرة في المليون اندفعت الطلقة تجاه عنق الأسـتاذ المحاضر في ذات الوقت الذي أعاد فيه الميكروفون أمام فمه مستكملًا شرحه، فاصطدمت الطلقة بالميكروفون وتحول اتجاهها إلى الجدار الذي أخلفت فيه ثغرة ملحوظة.

وضع الضابط علامة حول الثغرة بالحائط، ثم حرّز الميكروفون الذي انبعج جزء من جسده من قوة الطلقة، وطلب متطوعين للشهادة فذهب معه بعض زملائنا، أودع الطالب في مستشفى للأمراض العقلية، وتبيّن من التحقيقات أنه رسب في هذه المادة مرتين وكان خائفًا جدًا من أن يرسب في ذاك العام ويُفصل من الجامعة نهائيًا، لذا قرر اغتيال أستاذ المادة باعتباره المتسبب في ضياع مستقبله.

في امتحان نهاية العام، لم يفارقني مشهد الطالب المعتدي وهو يرتعد من الخوف بمجرد دخوله سيارة الشرطة، ولا مشاهد الهلع

التي صاحبت انطلاق الرصاصة، وفي امتحان المادة التي بسببها حدثت الواقعة، كتبت إجابات أسوأ بكثير من المرتين اللتين أخفقت فيهما، لكني فوجئت بنجاحي في هذه المادة بتقدير مقبول!! وفي ذلك العام لم يرسب أحد في تلك المادة.

حسن الحظ الذي حلّ بي في ذلك العام، كان قد زارني قبلها بعامين عندما دخلت كلية التجارة وأنا من خريجي القسم الأدبي بالثانوية العامة، وقابلتني مشكلات جمّة في مادة الرياضة البحتة في عامي الأول بالكلية، ودخلت امتحان نهاية العام في تلك المادة، وعندما تسلمت ورقة الأسئلة ورأيتها أشبه بطلسم كبير من الطلاسم التي تغلق بها القوارير التي يحبس فيها الجن والعفاريت، لم أستبشر خيرًا، وللحقيقة لم أحل سؤالًا واحدًا فيها وتوقعت صفرًا كبيرًا في نتيجة نهاية العام مع تقدير ضعيف جدًا "ض ج"، غير أني حصلت على درجة الامتياز في تلك المادة، دهشت وذهلت ولم أتحدث بشأن هذه الواقعة، حتى لا تراجع الورقة وأحصل على حقي وهو الصفر، لكني في العام التالي غالبني الفضول للتقصي حول هذه الواقعة، وكنت أعرف بعض الأصدقاء من أعضاء اتحاد طلاب الكلية، الذين عرفوني برئيس الاتحاد، وفي جلسة صفاء أخبرته بالأمر، فضحك كثيرًا وربت على كتفي وهو يقول "إنت محظوظ أوي"، ثم أخبرني بأن أستاذ المادة كان يصحح أوراق أسئلة ذلك العام كعادته في الشاليه خاصته بالإسكندرية، وهبّت رياح طيبة

عفيــة أطارت من أمامه 15 ورقة، وأكمل التيار الجميل وســحبهم إلى عمق البحر، خشى الأستاذ من إعطاء درجات غير مناسبة لتلك الأوراق المجهولة، فقد يتقدم أحد أصحاب هذه الأوراق بالشــكوى ويدفع الرســوم المقــررة لإعادة التصحيح، وعندمــا تنعقد اللجنة المحايدة لفحــص الأوراق المعترض على نتائجها لا تجد الأوراق فيحاسب الأســتاذ ويعاقب، لذا تجنبًا لهذا الموقف المحرج اضطر الأستاذ لإعطاء الدرجة القصوى لكل ورقة محظوظة.

تخرجت في كلية التجارة وعملت محاسبًا في عدد من الشركات الكبرى، ثم وصلت إلى منصب المدير المالي، واعتزلت المحاسبة وتفرغت للكتابة، لكن الغريب أنه عندما تزداد التوترات والضغوط وتهاجمنــي ليلًا الكوابيــس، أغلب هذه الكوابيــس لا يخرج عن ترشيحي لمنصب مهم، ثم اكتشاف أني لم أنجح في هاتين المادتين ويجبروني على الالتحاق بالكلية مرة أخرى، لكي أتلقى دروسًا مرة أخرى في المادتين، بعدها يُعقد لي امتحان فيهما حتى أنجح، مؤخرًا هاجمني كابوس أعجب، وجدت نفســي في وسط خيمة الامتحانات جالسًــا، والمراقب يمر ويترك لي ورقة مــادة التمويل لكي أجيب عن الأســئلة، كنت أكبر الطلبة سنًا وكانوا ينظرون إليّ ويبتسمون خلســة، وكانت الأسئلة معقدة جدًا، وكلما نظرت إلى ورقة الأسئلة كان القلــم بيدي يتضاءل وورقة الإجابة تكبر جدًا، ثم بدأ جســدي يتقلّــص وتضخمــت الورقة واحتلت كل جدران وســقف الخيمة،

واختفى الطلبة والمراقبون، ووجدتُ نفسي في حجم عقلة الإصبع، وبدأت ورقة الأسئلة تتشكل وتتحول إلى قرطاس كبير التفَّ حولي وأغلق نفسه على جسدي، جعلني عاجزًا عن التنفس.

من قال إننا لا نُعاقَب في دنيانا هذه!

بلدنا بقت سيريالية

في صباح يوم جمعة من شهر ديسمبر القارص البرودة في مدينة لندن، ارتدى مختار أشيك بدلة لديه ولبس فوقها بالطو جوخ ثمين، ثم توجه إلى مكتب طيران (البريتش إير واي) في قلب العاصمة البريطانية، حجز تذكرة سفر إلى القاهرة في أقرب رحلة، وكانت طبقا للجدول المعلن تقلع الطائرة من مطار هيثرو في تمام الساعة الحادية من صباح الغد، ثم تجول قليلا بالمدينة واشترى كل ما يلزمه في السفرة من هدايا ومستلزمات، بعد ذلك عرج على البنك الذي به حسابه أطمئن على مدخراته وسحب مبلغا ماليا للنثريات، ثم أسرع إلى منزله ليضع الحقائب واتصل بصاحبة

المنزل التي أجرت له المكان لكي يخبرها بسفره ويطلب منها أن تمر عليه في المساء كي تحتفظ له بالمفتاح حت يعود بعد أسبوعين كما هو مقرر.

مختار كان واحدا من الطلبة المصريين الذين اعتادوا السفر في فترة الإجازة الدراسية الصيفية إلى دول أوروبا وعلى رأسها "لندن وباريس وإيطاليا وفي نهاية القائمة ألمانيا وإسبانيا" كي يعملوا في مطاعمها وباراتها وحقولها ومصانعها ويتكسبوا أموالا ويستفيدوا خبرات، وكان أغلب هؤلاء الطلبة يعودون إلى دراستهم في أول العام التالي أو بعده بأشهر قليلة والقليل منهم يغامر ويبقى سنة أخرى قد تزيد، وتعتبر تلك الفترة من الفترات الذهبية لسفر الطلبة المصريين إلى الخارج التي بدأت في أوائل السبعينيات من القرن الفائت واستمرت حتى منتصف الثمانينيات ثم انحسرت بعد ذلك.

سافر مختار إلى لندن وهو في عامه الدراسي الثاني بكلية التجارة، وتعثر قليلا في بدايات عمله في لندن، التي بدأها عاملا بمحطة بنزين، ثم بائعا للورود والصحف، وكاد بعد شهر واحد من وصوله أن يعود إلى مصر ولا يكرر تلك التجربة القاسية، لكن سرعان ما تبسم له الحظ عندما عمل عامل نظافة بأحد المطاعم الكبرى، ثم اكتشفت مهاراته بالتتابع فنقل إلى داخل المطبخ، واقترح إدخال بعض الأطعمة الشعبية الشرقية، وبعد تنفيذ اقتراحه

لاقت تلك الأصناف رواجا كبيرا رقي بعدها إلى منصب مســاعد شيف وبدأت تضحك له الدنيا، لكنه لم يعد إلى مصر في ذلك العام لتثبيت مركزه، ولا في العام الذي يليه والذي تضخم فيه راتبه جدا، وهكذا كلما أتى العام الذي كان قد قرر فيه العودة، ارتفعت عوائده وعلت معها نســبة المخاطرة بترك هــذا المكان ولو لمدة قصيرة، فهو لا يضمـــن أن يظل منصبه خاليا إلى حين عودته، ولا يطمئن لوعود أصحاب المكان الملئ بالمنافسين، لذا غامر مختار بمستقبله الدراسي لسنوات خمس مقابل عمله المزدهر.

لكن حانت اللحظة التي افتقد فيها مصر وأهله بشدة، واكتسب ثقة أصحاب مطعمه جدا وأصبح في موضع من الصعب الاستغناء عنه، وحتى على أسوأ الفروض لو حدث ذلك لن يهمه، لذا قرر زيارة أهله والبقاء في مصر لمدة أسبوعين يعود بعدهما إلى لندن أو أي دولة أوروبية أخرى.

في منتصف اليوم رأى مختار ســيارة جاكــوار أعجبته جدا، دخل إلى معرض وكيل ســيارات الجاكــوار الذي يعرضها للبيع، كان ســعرها كبيرا لأنها موديل العام القادم الذي ســيهل بعد أيام، أدار مختار الســيارة وجربها في السير وبجواره كان يقبع موظف بالمعرض، أخرج مختار دفتر شيكاته وحرر شيكا بالمبلغ لصاحب المعرض، ثم استلمها ورحل، تعشى مختار عشاءً فاخرًا في مطعم

شـــهير وزادت الســـيارة من وجاهة وأناقة مختار، ثم زهق مختار من الســـيارة فذهب إلى وكيل ســـيارات جاكوار في منطقة أخرى وعرض عليه شراء السيارة لانه زهدها، عندما رأى مدير التوكيل أوراق الســـيارة المشـــتراة في نفس اليوم طلب منه أن يعيدها إلى المكان الذي اشـــتراها منه وســـيعطونه ثمنها مخصومًا منه بعض المصروفـــات، تململ مختار ثم قال للمدير إنه في حاجة ملحة إلى كاش في الحال والبنوك قد أغلقت أبوابها وهو مســـتعد لبيعها حتى بنصف ثمنها، اســـتاذن المدير من مختار ودخل إلى مكتبه وأجرى اتصالا بالمعرض الذي باع الســـيارة وتأكد من أن مختار اشتراها بشـــيك مصرفى بعد موعد إقفال البنوك، اســـتراب المدير واتصل بالشرطة البريطانية التي أســـرعت بالحضور وعندما رأوا تذكرة ســـفره التي تشـــير إلى مغادرته في صباح يوم السبت "يوم إجازة البنوك" أودعوه في الســـجن حتى يتأكدوا مـــن رصيده البنكى في صباح الأحد التالي.

وفي صبيحة يوم الأحد أجرت الشرطة اتصالا بالبنك المسحوب عليه الشيك، وكانت المفاجأة أن رصيد مختار يكفي ويفيض، وتم الاعتذار له، لكن مختار رفع قضية تعويض ضد الشرطة البريطانية وضد توكيل جاكوار لأنهما تسببا في سجنه لمدة يومين دون سبب، كسب مختار القضيتين ونال تعويضا خرافيا عاش بفضله سنوات

في النعيم والرخاء حتّى بعد ان دفع ربعه إلى صديقه المحامي المصري الذي اقترح عليه هذه الفكرة.

بعيدًا عن المغزى الأخلاقي هذه الحكاية فتنتنا في السبعينيات لطرافتها ولذكاء مرتكبيها خاصة وقد ضحكا على اسكوتلاند يارد التي كانت أسطورة أيامها كما كانت تصورها أفلام جيمس بوند.

ثم جاءت أيام تدهور فيها كل شيء حتّى الجريمة، بتنا نسمع عن مختطف يختطف ابن أخيه ويقتله ثم يطلب فدية، وراكبي موتسيكلات ينتشون بغباوة سلاسل وشنط السيدات والرجالِ ولا يبالوا بالأضرار التي ينالها الضحية وهو يسحل على الأرض، وصولا إلى جرائم لا تحدث حتّى في أفلام العبث أو الخيال العلمى، مثل مكتب بريد حلون الذي تم اقتحامه 19 مرة في مدى ستة أشهر، أول مرة وجدوا بالخزينة 80 جنيها فاستأوا وغضبوا لكن الموظفين أولاد الحلال برروا الأمر بأنهم جاؤوا متأخرين بعد أن رحلت السيارة بالأموال، في اليوم التالي جاءت العصابة مبكرا فوجدت 90 الف جنيه في الخزانة استولوا عليها وانصرفوا، بعدها اعتادوا الامر وكلما أصابتهم ضائقة اقتحموا مكتب البريد نفسه وأخذوا اللي فيه النصيب، تخيلوا 19 مرة العصابة هي هي بكامل أفرادها والموظفين كما هم وعملاء مكتب البريد زي ما هم ولا أحد يتعرف على المقتحمين، ولا تزيد الحراسة على المكان، ما هذه الغرائبية والسريالية التي بتنا نعيش فيها؟.

الابتذالة لا تزال في جيبي

موسـيقا تصويريـة تتزامن مع نـزول تتر مقدمـة البرنامج التلفزيوني الشـهير، الـذي يبث عبر أول قناة دينية في الشـرق الأوسـط. التوقيت في أواخر ثمانينيات القرن الماضي، والبرنامج تقدمـه مذيعة لبقـة جميلة ومحجبة، وعلى مـا أتذكر أنه كان من إعدادها، واسم البرنامج ومضمونه عن ضرورة أن نحاسب أنفسنا فـي الدنيا قبل يوم الحسـاب، وهو موضوع جيـد والبرنامج كان جيـدًا في غالب حلقاته، غير أن هناك حلقة منه ظلت عالقة بذهني حتـى الآن، وبدأت بدخول الكاميرا على الإسـتديو الذي تدور به الحلقات، ورأينا أريكة تجلس عليها سـيدة بسـيطة، وبجوارها في

الركن القصي طفلة في حدود السادســة من عمرها تجلس منكمشة جدا تبعد رأسها عن مواجهة السيدة التي تجاورها كأنها في خصام معهـــا، المدهش في الأمر أن هناك شــبهًا كبيــرًا بينهما يدل على أنهـــا ابنة الســـيدة أو على أقل تقدير أختهـــا الصغرى، ثم اقتحمت المذيعة المشهد وبدأت تتكلم باستعراضية عن حقوق الوالدين تجاه أولادهما، ومسألة عقوق الوالدين وعقابها الدنيوي وفي الآخرة، ثم تطرقت إلى قسوة الوالدين على أبنائهما والتي تتجاوز أحيانا حدود التربية، وكانت في خلال مقدمتها المثيرة تلك، تدعم أقوالها بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ثم جلســت تحكي للمشاهدين قصة هذه الأم مـــع طفلتها الصغيـــرة، وكيف أن هذه الأم لـــم تراع اللـه في أولادها، وكيف تحجر قلبها إلى درجة أن تعاقب هذه الطفلة البريئة بعقاب وحشـــي، لمجرد أن الطفلة أضاعت النقود التي أعطيت لها لإحضار الإفطار والخبز والســجائر للوالد، ولأنها في مرة أخرى لعبت مع بنت الجيران على بســطة السلم، وكسرا البلاط كي تلعبا "الأولـــة". حاولـــت الأم تبرير موقفها لكن المذيعـــة لم تمكنها من ذلك، وانتقلت بســرعة إلى الجانب الذي تجلس فيه الطفلة وطلبت منهـــا أن تحكي ما حدث للمشـــاهدين، أبكتنـــا الطفلة وهي تتحدث بصعوبة بالغة عن العقاب البشـــع الذي نالها من الأم، فطلبت منها المذيعة أن تعرض مواطن إصابتها على المشاهدين في ذات الوقت الذي أعطت فيـــه أمرًا للمصور بأن يقتـــرب بكاميرته من الطفلة

ويركز على جروحها. كشفت الطفلة أجزاء من ذراعيها وظهرها، فرأينـــا ندوبا وكدمات زرقاء وبقايا جلد متهتك ومحروق من جراء تعذيب الأم للطفلة بملعقة تم تسخينها على النار، كانت المناظر التي ظهرت على الشاشـــة في قمة البشـــاعة تجعلك لا تتعاطف مع هذه الأم المتوحشة قيد أنملة، وكانت الأم قد أحنت رأسها وبدت في شدة الخجل من توبيخ المذيعة لها؛ وظلت تردد كلمات الأسف وتعد بأنها لـــن تفعلها مرة ثانية، إلى تلك اللحظة كانت الحلقة جيدة جدا وميت فل وعشـــرة، لكن كان في جعبة المذيعة ما هو أكثر، فجأة أشارت إلى أحد الأشـــخاص خارج الكادر، وبعد لحظات دخل شخص إلى الإستديو حاملا شـــيئا يخفيه خلف ظهره، تحركت المذيعة بسرعة وأخذت منه هذا الشيء الغامض وقربته من الكاميرا، فإذا به ملعقة معدنية تتوهج مغرفتها من شدة النار، قربت المذيعة الملعقة النارية من الســـيدة وهي تستفسر منها: إنتِ كويتها بمعلقة زي دي؟ أبعدت السيدة رأسها عن النار اللافحة، وأجابت بخوف: أيوة. هنا طاردتها المذيعة في كل الإســـتديو وهي تحـــاول إخافتها بالملعقة، وتوهمها بأنها ستكويها بها كما كوت طفلتها! وأصبحنا نرى "كر وفر وتعثر وكعبلة في ديكور الإســـتديو"، وتعالى صراخ السيدة وهي تهرب وهتاف المذيعة وهي تطاردها وتصيح: مادام بتخافي كده ماخفتيش ليه من ربنا وانتي بتعذبي بنتك المســـكينة دي؟! لم ينته هذا المشهد العبثـــي إلا بعدما بكت الطفلة خوفا على أمها التي تطاردها المذيعة

الهمامة، وانقلب الحال تماما وتعاطف المشاهدون مع السيدة الجانية بدلا من إدانتها.

بداية مــن دخول الملعقــة الملتهبة إلى الاســتديو حتى انتهاء المطاردة.. هو ما أســميته في عنوان المقالة بالابتذالة... التي هي دائما زائدة وفائضة عن الحاجة ولا ضرورة لها لكن وجودها يغير الموازين ويقلبها إلى الضد تماما.

وخــذ عنــدك حكاية مماثلة حدثــت مؤخرًا... أرســلت إحدى الصحــف مندوبتها إلى إحدى المحافظات التــي حدثت بها واقعة مؤســفة، وهي استغلال مدرب رياضي لوظيفته في إقامة علاقات مشــبوهة ببعض النساء وتســجيلها على جهاز الكمبيوتر الخاص به، ثم تسربت هذه التسجيلات المصورة وتسببت في فضائح، وتم بيع هذه الســيديهات الحاوية للفضيحة فــي تلك المحافظة، وجدت المحــررة البائع يبيع بضاعته أمام المســجد في يوم الجمعة، ليس على المكشوف طبعا، لأنه كان يستتر ببيعه السيديهات بغيرها من خطب أشــهر الدعاة والتلاوات وقصص الأنبياء وغيرها مما ينفع الناس، ســألته المحررة عن السيديهات، فلم ينكر، وقال إنه يبيعها بـ200 جنيه للســي دي الواحد وأحيانا ينزل بالسعر إلى 100 جنيه، قبل أن تنهي المحررة حديثها معه ســألته: أليس حراما أن يســاهم في نشر هذه الفضائح؟ وذكرت له الحديث النبوي العظيم "من ستر

مسلما ستره اللـه في الدنيا والآخرة"، سكت لحظات ثم أقسم لها بحماسة بأن أكثر من سائح عربي أرادوا منه شراء هذه السيديهات بضعف الثمن، لكن رفض، وختم كلامه بأنه لا يمكن أن يفرط في عرض بنات بلده!!

توالت صور الشهداء على الشاشة في منظر بالغ الأسى، وظل المذيع الإعلامي الكبير ينعيهم بصوت قوي يتخلله بعض الخشوع، ثم تجلى وقال إنه يتمنى أن يرى الشهداء رأي العين لكي يضعهم حول رقبته وعلى ظهره ويطوف بهم الميادين... ما هذا يا صديقنا؟ الشهداء في السماء يا رجل وأنت تنزلهم من أعلى عليين!!! ألم تقرأ في القرآن الكريم هذه الآيات من سورة آل عمران. (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ).

هل هناك فضل أو عدل أكثر من هذا، وأنت تفكر فيهم بمنطق الألتراس؟!

ملحوظة 1

العنوان مأخوذ بتصرف من عنوان فيلم (الرصاصة لا تزال في جيبي) أحد أهم الأفلام المصرية التي تناولت حرب 6 أكتوبر

1973، وهو من تأليف إحســان عبد القدوس، وإخراج حسام الدين مصطفى، وإنتاج عام 1974.

ملحوظة2: من الممكن اعتبار لقاء المذيعة مع الأم وطفلتها وما دار في هذا اللقاء، بمثابة أولى حلقات تليفزيون واقعي في العالم، لأن الحلقات التليفزيونية التي تتناول The real world بدأت في العالم عام 1990 متزامنة مع حرب الخليج الأولى ومن أمثلة هذه البرامج برنامج "الناجون" Survivors والأخ الأكبر. Big brother

يوم عادي جدًا في مقهى المثقفين

يرتب عامل الشيشــة الشــيش بعد تنظيفها ويوقد النار في فحم الموقد، بينما يرص الصبيان الكراســي بعد أن مســحوا الأرض ورشــوا نشارة الخشــب، يقف عامل النصبة مستعدًا للطلبات أمام (الرمّالة) التي يرقد على ســفحها البراد الكبير المملوء بالمياه، في ذات اللحظــة التي يرص فيها مدير المقهى الماركات على (البنك) ليتسلمها العمال ويتعاملوا بها حين يطلبون القهوة والشاي والعناب والسحلب والمشــروبات الغازية.. يتمطى القط الصغير من نومته في حوض النباتات، ثم ينتبه لحركة الطيور فوق الشــجرة، منذ أن بــدأ يعي ما حوله وضعهم كهدف محتمــل وحلم باقتناص أحدهم،

وباءت محاولات كثيرة له بالفشـــل لكنه مصـــر على هذه الوجبة وداخله يقين شـــديد بأنه ســـينجح في يوم ما، ساق الشجرة ملفوف بسلك كهربائي في نهايته هيكل فانوس رمضاني موضوع في ذات المـــكان منذ أعوام، ضغط القط عضلاته وارتفع برأســـه في حذر ناظرًا إلى اليمامة المشاغبة التي تقف على أقرب فروع الشجرة إلى الأرض دون أن تأبه له أو تخاف منه، اليمامة مشغولة بتفلية ريشها بمنقارها الصغير، ثم تكمل نظافتها بدس المنقار في زغب صدرها، وهي ترفع جناحيها قليلًا فيحجبان عنها الرؤية، ينتهز القط الفرصة ويتسلل صاعدًا الشجرة بمساعدة السلك الكهربائي الذي يشبه السلم، بمجرد اقترابه من الهدف، ترتفع اليمامة أعلى قليلًا إلى فرع نحيف وصغير جدًا، وهي آمنـــة أن القط لن يقدر على الاقتراب منه لأن حجمه الضخم سيهوي بالفرع والقط إلى الأرض، القط يقف حائرًا في بطن الشجرة حيث تمتد الأفرع يمينًا ويسارًا ينظر إلى أعلى في غيظ، وبينما أنهت اليمامة نظافة جســـدها ترد إليه النظرة بتشف.. ينسحب القط بخلاف الطريق الذي جاء منه.. يقفز من الشجرة على ســـقف سيارة راكنة أسفل الشـــجرة فيحدث صوتًا مزعجًا ثم يكمل طريقه من سقف السيارة إلى محركها إلى الرصيف.

تأتي السيدة ذات الملابس المزركشة التي كساها التراب وأضاف إليها لونًا جديدًا.. تسير في تؤدة.. حافية وجزء من ساقيها عار، الساقان تستضيفان الطين والوحل ومخلفات البشر والحيوان وكل

الملوثات المرئية والمحجوبة، السيدة ابتكرت علاجًا فطريًا للجروح والتقرحات والندوب اللواتي كمنت في الساق، لقد طلت ساقيها حمرة من مخلفات مصانع العدسات والبصريات التي تملأ منطقة وسط البلد.. الحمرة جعلت منظر ساقيها لافتًا جدًا مع ملابسها ذات الألوان المبهرجة وحقيبتها الجلدية المهترئة التي تضعها في ظهرها ويخرج من فوهتها أوراق جرائد حاوية ساندويتشات، السيدة لا تتسول لكنها تنتقي أشخاصًا بأعينهم تشير إليهم من على مسافة، إشارتها بمثابة أمر يجعل الشخص المشار إليه ينهض بسرعة ويقترب منها، دائمًا تصنع مسافة معينة بينها وبين الناس، كلما اقترب منها أحد ابتعدت قليلًا لتحافظ على تلك المسافة، لا تنظر مباشرة إلى عين الشخص بل ترفع يدها اليسرى لتحجب بها أعلى وجهها وتتكلم وعيناها صوب الأرض، تطلب جنيهًا واحدًا وتفتح كفها لتأخذه وهي تقول بصوت هامس" متأسفة يا أستاذ.. ميرسي.. ثم تقف أمام باب المقهى يخرج إليها العامل ويستمع إلى طلبها "واحد شاي بالحليب".. يقول لها إنه لن يعطيها الشاي لأنها تلقيه على الأرض، لا ترد، يطلب منها أن تعده بألا تلقيه على الأرض، تهز رأسها بالموافقة فقط يتحرك إلى الداخل ويقدم لها الشاي بالحليب في كوب من البلاستيك.. تمسك بيدها الكوب وتتجه إلى زاوية مهملة من المقهى، تنظف الأرض حولها بجريدة من حقيبتها وتجلس، العامل يراقبها ليعرف ماذا ستفعل بالشاي!

تميل الكوب وتدلق منه على الأرض كأنها ترسم خطا وهميا بالشاي المختلط بالحليب، وهي تتكلم بهمهمات مبهمة مع الأرض التي روتها بالمشروب، وتتجرع الثمالة في عجالة، وبعدها تنظف الكوب البلاستيك بكم فستانها، ثم تعطيه للعامل الذي يلقيه في صحيفة القمامة بعد مغادرتها.

يقترب منك عامل الشيشة ليفضفض عن مشاكله في فترة الهدوء بالمقهى، حلمه بأن يحصل على رخصة درجة أولى كي يعمل في قيادة سيارات النقل العام، الفاحص لا بد أن يقدم عينة من البول حتى يتم التأكد من أنه ليس مدمنًا المخدرات أو الكحول، أعطوه كوبًا زجاجيًا ليقدم لهم العينة.. ذهب إلى المبولة وفوجئ برجلين في ظهره يراقبان ما يفعله، انحبس البول فزعق فيهما كي يخرجا، لكنهما أصرا على الوقوف خلفه حتى ينتهي من تبوله، وهدداه بأنه لن يحصل على الرخصة لو انصرفا من المكان دون متابعته، بعد محاولات نجح في التبول وأعطاهما العينة وسألهما عن ضرورة هذه التشديدات في أخذ العينة، أجابه أحدهما بأن سائقًا مدمنًا لكي يخفي إدمانه، تظاهر بأن يبول ثم قدم لهم عينة من زوجته كان قد دسها في ملابسه، وعندما ذهب لتسلم الرخصة، قال له الضابط المختص: مبروك إنت طلعت حامل.

بجوار المقهى أكثر من مطعم سياحي، في أحدها دارت هذه

الواقعة، دخل موظف من السياحة للتمام على المطعم، والتأكد من التزامه بالأسعار المعلن عنها ومطابقة شروط وزارة السياحة، تقدم إليه محاسب المكان (وهو من زبائن المقهى) وقدم له الإكرامية المالية المعتادة في مثل هذه الأماكن، وقبلها وكتب تقريرًا ممتازًا.. كان الوقت في تمام فترة الغداء فعزم عليه بالغداء في المطعم، انبرى واعترض بشدة وقال إنه لن يأكل في مطعم يقدم الخمور (مع أنه أخذ الرشوة عادي جدًا) الرجل الثاني المصاحب له لم تكن الأمور تفرق معه فهمس لمحاسب المكان بالحل، والحل هو أن يجلسا على المقهى وتخرج صينية الطعام من المطعم السياحي إلى ترابيزة الملهى ويتناولان الطعام عليها، وقد كان، وقبل الرجل المعترض أن يأكل الطعام الذي كان يجاور زجاجات الخمور على المقهى لأنه يتقي الشبهات.. واستفاد عمال المقهى من بقايا الطعام الفاخر الذي تبقى والذي لحسن الحظ لم يصر أحد الرجلين على لفه تيك أواي.

اكتــظ المقهى بالنــاس في الليل لأنــه اليوم التالــي لمليونية، وامتلأت الترابيزات بالشــعب الثورية المختلفة، يمر ماسح أحذية ظريف يضع ســماعات "هدفون" على أذنيه وجهاز "دي في دي" في حزامه، يضرب بيده على لوح خشــبي صغير معلنًا عن نفسه، تنقطع الثرثرة قليــلًا ويعطيه البعض أحذيتهم، يجلس الرجل تحت الشــجرة التي اعتلاها القط في الصباح ويبدأ في مســح الأحذية،

ثم يستغل حالة الصخب الثوري ويفلت بغنيمته من الأحذية، بعد مدة زمنية قصيرة، يبدأ أحد الزبائن في السؤال عن حذائه، ثم يتبعه الباقي ويكتشفون أنهم سرقوا. تدور المشادات وإلقاء التهم بين عمال المقهى والزبائن، يتنصل عمال المقهى من المسؤولية ويجلس الزبائن مكتئبين وجواربهم فوق القطع الصغيرة من الكرتون التي أعطاها لهم ماسح الأحذية في مقابل أحذيتهم، بعد قليل يمر بائع على رأسه لوح خشبي كبير عليه شباشب بلاستيك بسعر 10 جنيهات فقط، تباع أغلبها فورًا للمسروقين.. يغيب بائع الشباشب - بعد أن ربح من بيعته - عن بصرنا قليلًا، وعلى مسافة ليست بعيدة عن المكان يجلس رجلان وهما يقتسمان النقود، دقيق الملاحظة فقط سيعرف أن أحدهما هو ماسح الأحذية والآخر بائع الشباشب.

مشاهد متناثرة من بوابات الجحيم

مشهد1

عقب انتهاء صلاة الفجر بقليل، يتقدم الفلاح ساحبًا دابته، كي تشرب باتجاه الترعة أو الرياح أو رافد النهر، تباغته جثة غريق قد أصابها البلل والرمم تجاهد، كي تفلت من بين عيدان البوص التي أعجزتها وحجزتها عن السباحة مع التيار، يهرع غفير الدرك كي يستدعي رئيس الغفر ويتوالى الاستدعاء الهرمي وصولًا إلى العمدة ومأمور المركز.. السادة يضعون أطراف ملابسهم وكوفياتهم على أنوفهم من هول الرائحة، ثم يخرج صوت

المأمور من خلال نســيج قماشه المتلثم به سائلًا: هل تغيّب أحد من أهل المركز في الفتــرة الأخيرة؟، وعندما تهتز هامات المتفرجين والأهالي نفيًا لغياب أحدهم، يفكر المأمور قليلًا بما سيفعله في هذه المصيبة، هنا يومئ العمدة لشــيخ الغفــر الذي يلكز الجثة بعصاه، فيفهم بقية الغفر الرسالة، ويرفعون ذيول جلابيبهم ويخوضون في المياه قليلًا وهم يدبون نهايات عصيهم في الجثة، ويشــرعون في تخليصهــا من البوص وورد النيل، ثــم يدفعونها إلى مجرى النهر تاركيــن للتيار مهمة إبعادها إلى زمام قرية أو مركز آخر.. يراقب المأمور انسياب الجثة فيما يشبه حركة قرش نشيطًا سعيدًا ويربت كتف العمــدة بامتنان ثم يذهبون لتناول وليمة بمناســبة جلاء هذه الغمة. (ليس هذا مشــهدًا سرياليًا ولا سينمائيًا، كان هذا واقع الحال في القرى والنجوع المصرية في ستينيات القرن الماضي أيام كان العالــم يكاد يخلو من الإرهاب المفــرط في عنفه وكان التعامل مع الجرائم والضحايا يعتمد على حســن النوايا ونظرية جحا.. طالما بعيد عن بيتنا مفيش مشكلة).

مشهد 2

في قلب ميدان العتبة ذات صباح، اشتبه البعض في كيس من البلاستيك الأسود ملقى على الأرض أسفل أتوبيس خاص، فأبلغوا

الشرطة لأن الأجواء كانت مشحونة آنذاك بعد الحادث الإرهابي الذي تسبّب في تدمير مقهى وادي النيل بميدان التحرير وخلّف وراءه ضحايا كثيرين، كان موقع الكيس المشبوه بالقرب من مركز مطافي العتبة الذي بطابقه الثاني تقبع وحدة الأمن الصناعي والدفاع المدني.. هرع على الفور رئيس الوحدة ومعه مساعدوه وأفسح لهم الناس الطريق وصولًا إلى الهدف..

انحنى رئيس الوحدة وتفحص الكيس عن بعد وأصدر أمرًا بتحرك الأتوبيس بحذر ليعاين الكيس عن قرب..

بعد خروج الأتوبيس من دائرة الضوء ظهر الكيس منتفخًا وارمًا وأغرى بعض المشاهدين بالتوجه تجاهه، لكن رئيس الوحدة صرخ فيهم وأمرهم بالابتعاد.. ثم قدر مسافة لنفسه تجعله آمنًا وهمس في أذن معاونه الذي سرعان ما عاد إليه ببعض قطع الطوب، ألقى رئيس الوحدة بالطوبة الأولى فأصابت الكيس مباشرة ولم يحدث شيء وكذلك الطوبة الثانية والثالثة..

هنا اطمأن وتحرك رئيس الوحدة وأمسك بالكيس وفتحه، ووجد به قطعة حديد شبه أسطوانية غير محددة المعالم، فاحتضنها في صدره وصعد إلى مكتبه وخلفه بقية رجاله..

وضع القطعة على مكتبه وهو يحدق فيها بإمعان، ثم طلب مفك صليبية وضع سنه في رأس المسمار المثبت في الجسم الأسطواني

الذي أسال لعابه.. تحرك المسمار بسهولة لكن قبل أن يتم دورته انفجر المكان برئيس الوحدة والمساعدين..

(كان التعامل مع الإرهاب في تلك الفترة يعتمد على الفترة ولم يكن المسؤولون مدربين على التعامل معه بالحزم والجدية).

مشهد 3

أمسـكت السكرتيرة الحسـناء بورقة الفاكس وقرأتها بدهشة ثم ابتسمت وقدمتها إلى رئيسها وطلبت منه أن يقرأها.. انتهى رئيسها من قراءة الرسـالة التي تشـكو فيها مواطنة جزائرية من زوجها المصري الضابط في الداخلية، والذي يهددها بحكم وضعه الوظيفي بترحيلها دون إعطائها حقوقها، وهي تناشد وزير الداخلية الوقوف بجوارها وحمايتها والتدخل لإنهاء ارتباطها بزوجها بسلامة ويسر، بعد أن تأكد رئيس المكتب من أن هناك تشـابهًا في رقمين بين رقم الشركة ورقم وزارة الداخلية..

طلب من السكرتيرة تجاهل الرسالة، ونبهها إن استمر هذا الخلط فعليها أن تقدم طلبًا لوزارة الاتصالات كي تغير رقم فاكس الشركة حتى لا يحدث هذا اللبس مرة أخرى.

تمر فترة قليلة من الهدوء يعقبها فاكس آخر شـديد الخطورة..

يرتعــدان بعد قراءته.. فهو قادم من إحدى دوريات الأمن بالصعيد وعليه عبــارة عاجل جدًا.. ومحتواه يفيــد بمحاصرة إحدى البؤر الإرهابية في الصعيد وانتظار صدور الأوامر العليا بالتعامل معهم.. وأســقط في يد الاثنين، فهذا فاكس لا يستطيعان تجاهله أو التطوع بالاتصال بوزارة الداخلية لإبلاغهم بمحتواه أو إعادة إرســاله إلى الوزارة.. والأمر عاجل وكل لحظة لها ثمن..

بأيدٍ مرتعشــة وبعد أن بســمل وحوقل رئيســها اتصل بالرقم المرســل منه الفاكس، فرد عليه صوت رســمي بجفاء، لكن فور علمه بالمشكلة ســكت قليلًا ثم طلب من المتصل بصوت كله ريبة أن ينتظــر.. وبدأ صاحبنا يســمع تكات تحويــلات الاتصال التي بلغت أكثر من 5 تحويلات.. ثم جاء صوت كبيرهم هادرًا يتســاءل بغلظة: كيف عرف المتصل رقم هاتفهم؟ ولما ذكر المتصل ببساطة أن الرقــم موجود بكل وضوح على ورقــة الفاكس وبجواره وقت الإرســال ومدته، أســقط في يد الكبير في الجهة الأخرى، ثم قال بهمهمة إن كبير المهندســين الذي تولى تركيب الفاكس في الجهة الأمنيــة أخبرهم أنه قد تم تشــفير رقم الاتصال حتى لا يتبعه أحد، فكيف يظهر الرقم لديكم.. وعقّب (سأفتك بهذا المهندس).

ثم بدأ يسأل أسئلة مباحثية عن طبيعة نشاط الشركة وعدد الموظفين ومقرها بالضبط، وعندما اطمأن إلى أن عددها صغير

لا يبلغ 4 أفراد وأن اثنين منهما فقط من عرفا بهذا الفاكس، طلب برجاء من المتصل أن يحتفظ بالفاكس وإلا يصوره وسيرسل له على الفور ضابطًا من القسم التابع له الشركة ليأخذه، وفعلًا في غضون بضع دقائق أتى ملازم أول من القسم وتسلم الفاكس ومن خلال دردشة صغيرة تبين أنه من أقارب مسؤول الأمن في الصعيد وطمأن قريبه على الجانب الآخر من البلاد بأن الأمر تم بسلام، وفي اليوم التالي تغير رقم الفاكس وأغلقت بوابة الجحيم.

(هذه ليست واقعة متخيلة بل حقيقية وكنت أحد شهودها، وأوردتها لدلالتها على التراخي الأمني في بدايات الإرهاب التي وصلت إلى درجة الاستعانة بخبير في الاتصالات لتشفير أرقام الفاكسات وتسلمها منه دون التأكد من إتمامه عمله).

مشهد 4

كمين يسطف أمام السيارات التي يتم تفتيشها بدقة، حل الدور على سيارة أجرة ينزل منها شخص بجوار السيارة يلقي السلام ويترجل بجوار الكمين مبتعدًا عنه، ثم ينتظر السيارة على الجهة الأخرى، تجتاز سيارة الأجرة الكمين بخلوها من المشتبهات، تتحرك السيارة وينفتح بابها في انتظار دخول الرجل الذي ينتظرها على الجانب الآخر، قبل أن يدخل الرجل السيارة يلقي بعبوة متفجرات

على الكمين ويدخل السيارة التي تهرب سريعًا مخلفًا عددًا من الضحايا.

مشهد5

تقف سيارة مفخخة بالقرب من المديرية دون أن ينتبه لها أحد وتظل لابدة في المكان حتى تأتي سيارة أخرى لأخذ السائق الذي سيتولى تفجيرها بالريموت.

مشهد 6

كاميرات المراقبة التي صورت انفجار المنصورة هي كاميرات البنك التجاري المجاور للمديرية، وكاميرات المراقبة.التي صورت الحادث الإرهابي من مديرية القاهرة هي كاميرات المتحف المصري! هل لا توجد كاميرات مراقبة في مديريات الأمن؟..

(المشاهد الثلاثة الأولى ممكن تبريرها لحدوثها قبل حادث الأقصر الإرهابي الذي كان علامة فارقة تبين درجة توحش الإرهاب ونقص قدرات المتعاملين مع هذه النوعية من ألإرهاب، لكن بعد وقوف الدولة بكامل أجهزتها وأفرادها ضد الإرهاب، وبذل كثير من الجهد والمال في سبيل تدريب وتسليح أفراد الشرطة المصرية

ونجاحها في ذلك.. الثابت والملحوظ بتحجيم الإرهاب إلى أقل مستوياته في مدى عشر سنوات، من غير المقبول أن يتم التعامل مع الإرهاب الذي ازداد شراسة ووحشية في هذه الأيام بمثل هذا التراخي والقصور المعلوماتي الظاهر في المشاهد الأخرى التي جرت أخيرًا كما تناقلتها وسائل الإعلام الرسمية المصرية).

وقائع القبض على اللولب

أول خروجة لهذه الأرملة التعســـة كانت بعد انتهاء فترة الحداد علـــى زوجها التي امتدت إلى شـــهرين، والوجهة كانت إلى مكتب الصحـــة القريب من البيت بغرض نزع اللولب الطبي بعد أن أفتت لها إحدى صديقاتها بأن عدم نزعه - بعد توقف العملية الجنســـية- سيســـبب لها قروحًا والتهابات، قد تـــؤدي إلى مضاعفات خطيرة، كان المشـــوار ثقيلًا جدًا على قلب الأرملـــة، فلم تعد تطيق أجواء المستشفيات وروائح الكحول والاثير وغلاظة وجوه ما يقال عنهم ملائكة الرحمة، كانت قد لازمت زوجها الراحل في عنبر المستشفى الحكومي لأكثر من عام، شـــافت فيه من صنـــوف العذاب ألوانًا،

إهمال الأطباء عن المتابعة، طلبات الممرضات التي لا تنتهي التي تكلفهم بشراء القطن والحقن وكل ما يحتاجه المريض، فالمستشفى ليس به إلا أسـرّة فقط كأنه بنسيون من بانسيونات الدرجة الرابعة، صراخ لا يكاد ينتهي حتى يبدأ من جديد لاحتضار مريض أو موته أو ألمه الشـديد، رشـاوى ومحايلات للعاملين كي يؤدوا ما عليهم من واجبات، انتهت تلك الفترة العصيبة براحة أبدية لزوجها وبظن ضئيل أنها ستنال قسطًا زهيدًا من الدعة والهدوء، ولولا أن مكتب الصحـة ليس به غير أطباء وموظفين وبلا أسـرّة ولا مرضى ما ذهبت بقدميهـا إلى هناك، حان دورها فقادتهـا العاملة إلى غرفة الكشف النسـوي، فوجئت الأرملة بطبيبة منقبة كل ما عليها أسود ما عدا القفاز وبجوارها ممرضة جاوزت سن الشباب لكن جسدها ما زال فتيًا، بادرتها الطبيبة بصوت يطفح بالزهق: وأنتِ بتشـتكى من إيه كمان؟ فأجابت الأرملة بهمس: عايزة أشيل اللولب يا دكتورة؟ انتفضت الطبيبة كمن لامسـها ثعبان وشخطت فيها بحدة: هو إحنا فاضيينلكم؟.. نركب ونخلع.. ما ترسـوا على حل عايزين الهباب الخلفة ولا مسـتغنيين، انكمشـت الأرملة وتوقعت أن هذه الطبيبة العصبية ستؤذيها لو نزعت منها اللولب فقررت الانسحاب، وفعلًا استدارت خارجة من الغرفة، لكن صوت الطبيبة القوي استوقفها: على فين.. إنتي ما صدقتي..

ثم زعقت الطبيبة فيها وأضافت: قربي يا ست هنا. وقوليلي إنتي

كنتِ عايزة تشيليه ليه؟ لبدت الأرملة في مكانها وقالت بمسكنة: جوزى اتوفى من شهرين، قالت الطبيبة بآلية: اللـه يرحمه.. ومستنية شهرين بحالهم يا قلبك.. طب خشي ارقدي على سرير الكشف وأنا هاشيلهولك.

كانـــت الأرملة قررت ألا تنـــزع لولبها على يد هـــذه الطبيبة واعتقدت لسذاجتها أن القرار بيدها وقالت بصوت عادي هذه المرة: خلاص يا دكتورة، أنا راجعت نفسي وقررت إني ماشيلهوش.

وكأنها ألقت في حجر الطبيبة بفأر صحراوي، صرخت الطبيبة في وجهها بحدة في ذات الوقت الذي كانت تشير فيه إلى الممرضة بغلق الباب: قررتِ إيه بسلامتك؟.. اقفلي الباب يا صفية.. حتخليه ليه حضرتك؟ هو جوزك مش مـــات! لازمته إيه تخليه.. هو إنتي ناوية على إيه بالظبط أسقط في يد الأرملة ولم تدرِ بما تجيب أمام نظرات الطبيبة والممرضة.. وأســـئلة الطبيبة المبطنة بالاتهامات والشـــكوك، واستسلمت تمامًا ليد الممرضة وهي تقودها إلى سرير الكشـــف، ومرت عليها أسوأ نصف ســـاعة في حياتها، كانت فيها الطبيبة تدب يدها داخلها وتنزع اللولب النحاسي بكل قسوة ووحشية ثم تمسك بخيط أمام وجهها وتديره كالبندول وتخيلتها السيدة وعلى وجهها المخبوء بســـمة انتصار بانتزاع اللولـــب وهي تقول: أدينا شيلناه صلي بقا وصومي عشان جتة المرحوم تستريح في تربتها،

هذا ما حدث بالتفصيل وبلا مبالغة لسـيدة أرادت فقط إزالة عازلها الطبي، تمت محاكمتها أخلاقيًا وافتراض سـوء النية من طبيب أو طبيبـة كل مهمتـه أن يعالج المريض ويقدم لـه أفضل العلاجات الممكنة كي يحافظ على حياته أو يمنع تدهور حالته كما أقسم على ذلك قبـل تخرجه في كليته، لكن الأمور اختلطـت جدًا الآن، بتنا نسـمع عن أطباء يمتنعون عن مداواة مرضاهم لأنهم يخالفونه في التوجه السياسـي ومستشفيات ترفض اسـتقبال "مصابي حوادث" حالتهم في منتهى الخطـورة، والدقيقة تفرق في إنقاذ حياتهم لأنهم غير قادرين على الدفع، ومستشـفيات تحتجز جثث المرضى الذين لم يسـتوفِ أهلهم دفع مصروفات علاجهـم، وأخطاء طبية هائلة تحصد أرواحًا بالمئات، ومستشفيات تسرق أعضاء المرضى حتى انتشـرت ظاهرة أن يدخل أحد الأطبـاء من عائلة المريض غرفة العمليات ملازمًا لقريبه المريض حتى لا تسرق أعضاؤه، كل هذا ولا يتحرك أحد من نقابة الأطباء ولا من منظمات المجتمع المدني ولا من الحكومة ولا من الدولة العميقة لوضع حد لكل هذا العبث.. عبث في أغلى ما يمتلكه المواطـن.. حياته! وعلى الجانب الآخر بدأت بعض المستشـفيات الكبرى تعلق صورًا لكبار أطبائها على الكباري والجسـور وعلى أعمدة الإنـارة.. صور بحجم كبير جدًا كنجوم السـينما والفضائيات، الأطباء يرتدون فيها معاطف غرف العمليـات الزرقـاء والنظارات الريبان ووجوههـم تطفح بالرغد

يغرونك بابتســـامتهم الكبيرة- حتى لو كنت سليمًا ولست في حاجة إلى خبراتهــم- أن تضع جســمك تحت أياديهــم وتغمض عينيك وتتركها للـه. بتنا نعيش على جانبين لا يلتقيان.. ناس تعاني وتكابد تموت ولا أحد يســأل فيهم.. وناس ثانية تسمن وتتغذى على دماء الناس الثانيين ويهلون علينا من الشاشات ويتسربون من السماعات يطالبوننا بالصبــر وأفواههم تتلمز بالطعام.. صدقوني هذا الوضع لن يستقيم طويلًا فأين حكماء هذا الوطن؟

أن نكبر ونشيخ معًا

لا أتذكر متى بدأت أنتبه لهما بقدر ما أنكر أن الذي لفت نظري إليهما؛ ظهورهما المعدني لا البشري، فقد كانا يقبلان تجاهنا في توقيت محدد وهما يقودان سيارتين فخمتين متتابعتين؛ السيارة الأولى ذات الحجم الكبير تقودها سيدة شقراء جميلة ترتدي على الدوام "بدل" نسائية أنيقة بطرز وألوان مختلفة، أما السيارة التي تتبعها وتكاد تلاصقها فهي أقل حجمًا لكنها مميزة أيضًا، ويقودها رجل أنيق يكبر السيدة ببضع سنوات، ويسير دائمًا وحقيبة جلدية فاخرة معلقة على كتفه اليسرى. وكانا يدخلان بسيارتيهما الجراج المجاور ثم يخرجان مترجلين معًا، يسيران متجاورين وهما

يتحدثان، السيدة تسـير على اليمين في محاذاة الرصيف، والرجل على يســارها لا تفلتها عيناه كي يجنبهــا الأخطار، فإذا ما تعثرت في طوبة صغيرة بالطريق، سندها بسرعة، وإذا ما اقتربت سيارة من حيــز الرجل وهو غير منتبه جذبته الرفيقة من ذراعه في لمح البصر وأبعدته عنها، ولا تسترد رباطة جأشها إلا بزوال الخطر.

عندما علمت أنهما زوجان ويعملان في مؤسسة واحدة، اندهشت في البداية، ولعلّي تضايقت لحرص كل منهما على ركوب سيارته الخاصة مستقلًا عن الآخر، والإصرار في السير بطريقة الموكب ذهابًا وإيابًا من البيت إلى مقر العمل، ثم ارتكنت إلى أن لكل منهما منطقه الخاص، الذي ربما لو عرفناه لعذرناهما.

وبعد فترة زمنية كبيرة، لم تعد تقابلني طلتهما المعدنية إلا فيما ندر، ثم بدأت أراهما مرة أخرى يسيران مشيًا على الأقدام كثيرًا، وفيما عدا ذلك كانا يستقلان سيارة واحدة يقودانها بالتبادل، وعلمت أنهما تقاعدا من الذين يعرفونهما ومن مشيتهما التي تباطأت عما قبل، ولم يتبدل حوارهما المشترك، ومن أن السيدة هي التي على الأغلب تتكلم والرجل ينصت باهتمام شديد.. وهما لا يضحكان كثيرًا، وإن حدث ذلك، فيتم سريعًا وبصوت مكتوم كأنها ابتسامة طالت.

واختفيــا فجأة لفترة طويلة جدًا، لكنــي بحمد اللـه عدت أراهما

مجددًا.. المشية صارت أبطأ كثيرًا، والمسافة التي كانت متسعة في شبابهما ضاقت جدًا.. بل تكاد تكون اختفت، وإذا مالا طبقًا لحسابات الطريق يتمايلان يمينًا ويسارًا بتؤدة وبتشابك ودود، ويبدو جسداهما على مبعدة كأنه جسـد واحد، بالضبط كشـجر التين البنغالى الذي مـا زال موجودًا على كورنيش النيل.. ذلك الشـجر الضخم الذي يتكون أحيانًا من شجرتين متجاورتين ثم يصبح عضوًا واحدًا.. وكنا ونحن صغار نلعب ونأكل ونستريح ونختبئ أيضًا في فجواته.

وفي أحد الأيام القليلة التي مضت، تصادف أنني قابلت صديقة عزيزة كانت متزوجة من أحد أصدقائي، وتفرقت بنا السبل ولم أعد أسمع عنهما شيئًا.. ولأني شهدت بدايات حبهما العارم.. والعقبات التي انتصرا عليها حتى تزوجا.. والتضحيات التي تكبداها حتى ترضى أسرتاهما عن هذه الزيجة، وكيف غششت الحبيبة حبيبها (كل ما ترغب أسرتها في سماعه من المتقدم إليها حتى ترضى عنه)، وكيف أخبرها بكل الأفعال التي تجعل أمه ترضى عنها وتجعلها متلهفة على إتمام الزيجة بسرعة، لذا بمجرد ما عرفت مصير هذا الارتباط الجميل تكدرت، فقد ساءني ما حدث، وبان على وجهي التأثر، وحاولت معرفة أسباب هذا الانفصال، لكن الصديقة لم تقل غير جملة واحدة، إنه خان العهد الذي بيننا!

راودتني الأفكار السيئة المستقاة من مسلسلات التليفزيون التي

هيمنت على عقولنا.. ويبدو أنها لاحظت ذلك إلا أنها تداركت الأمر بسرعة، وقالت إنها اتفقت معه قبيل الزفاف على أن يعدها أن يكبرا ويشيخا معًا.. لكنه خان العهد وتركها تمضي شيخوختها بمفردها.

لحظتها تذكــرت الزوجين عابري الطريــق اللذين تحولا إلى شجرة تين بنغالي.

هيهه.. أنا اتثبت يا بابا

عندما يهرم الفتوة أو الرجل القوي الذي يسيطر على حي بأكمله ويتحكم فيه ويصعد أو ينهي شجاراته، يركن هذا الرجل إلى موقعه أمام بيته وقد وهن جسده وتراخت عضلاته، وبصوته الجهوري الذي ما زال فتيًا يعلق على تصرفات المارة بعين غائبة، فإذا ما لمح فتاة وفتى يسيران متشابكي الأيدي بعد أن أعمتهما الرومانسية ونسيا أنهما يخطوان في حي شعبي، يصرخ صاحبنا فيهما وينهرهما مطالبًا بالسير باستقامة وهو يلعن أبناء هذا الجيل، بينما لو رأى أمامه مشادة كبيرة - كان لا يمكن حدوثها في عز قوته- يفتعل النوم على كرسيه حتى تنتهي المشكلة، وبعد مرور زمن قليل تقل فيه

قدرته على النزول مكث في بيته، وإذا ما خرجت زوجته لشراء غرض للبيت يطلب منها الجيران أن تسلم لهم على بركة العمارة كلها، وربما اقتحم أحدهم الشقة ليقبّل كتفه وهو يقول: سلامتك يا بركتنا. وبعد نيله لقب البركة بقليل يحدث له إظلام تام.

وفي رأيي أن المتضرر الأول من ثورة 25 يناير هو الشرطة المصرية التي هاجمها البلطجية بضراوة وتبعتهم فصائل سياسية كانت لها ثارات معها، وراقبت جموع الشعب ما يدور بلا تدخل لأن بعضها تعرض للأذى منها بصورة أو أخرى، وفي غيابها ظهر الانفلات الأمني جليًا ودعت الحاجة إلى رجوعها بصورة جديدة قوامها أنها تعلمت الدرس، وفيما بعد بانت لها مواجهات ضارية مع الإرهاب والبلطجة، نجحت فيها إلى حد ما، ويرتفع معدل الأداء يوميًا وهذا جيد، لكني من خلال صحف الحوادث في الصحف وما تبثه بعض القنوات الفضائية كل مساء، اكتشفت أن العضو الذي ما زال قويًا في هذا الجهاز هو المعني بالأخلاق والقيم، فيوميًا تتساقط بؤر الدعارة وأوكار عبدة الشياطين والملحدين، ويدلهم المرشدون إلى الحمامات الموبوءة وأماكن الشذوذ، ولكن أيهما أفضل: المحافظة على روح وسلامة المواطن وتجنيبه الترويع أم عدم خدش حيائه؟

لـــم تقل عمليات خطف الرهائن وطلب الفدية بل زادت، وتجرأ

الخاطفــون وما عادوا يطلبــون من أهل المخطــوف عدم إبلاغ الشرطة، وزادت الموتوســيكلات التي تمرق بين الناس وتخطف حقائبهم وعقود وسلاســل الفتيات، وانتشرت عصابات المشاة التي تترصد حتى الأطفال وتثبتهم أمام منازلهم وتنزع منهم الموبايلات والنقود، وأصبح العادي أن يأتي إليك ابنك وهو يصفق ويقول: بابا هيهه.. أنا اتثبت.

والجانب الآخر غير المشرق أن صديقة لنا "دكتورة جامعية وكاتبة مرموقة" أوقفت لجنة سيارتها في حي الزمالك الساعة التاسعة مساءً، وعندما تأكد الضابط الصغير من صحة بيانات السائق والسيارة، مد رقبته داخل السيارة وتطلع إلى الدكتورة وقال: "جايه منين ورايحه فين الساعة دي؟" لكن الدكتورة خرجت من السيارة وزعقت فيه فانكمش الضابط الصغير، وظهر قائده العقيد فجأة واعتذر بشدة بحجة عدم خبرة الضابط، وواقعة أخرى مماثلة حدثت في حي المعادي في توقيت مبكر عن ذلك، وتصرفت السيدة نفس التصرف وظهر العقيد أيضًا فجأة بالاعتذارات نفسها، حد يفهمني ماذا يجرى دون علمنا؟ هل استحدثوا شرطة مجتمعية ويجربونها من ورائنا، وما دخل لجان المرور أو الأمن برايحه فين ولا لابسة كده ليه؟ وما علاقتها أصلًا بسلوكيات الناس؟ ولماذا لا تحدث هذه الوقائع إلا في الأحياء الهادئة الراقية؟ هل لأنهم يخشون العشوائيات؟!

يا ســـادة.. أمان المواطن وســـلامته هو الأهم.. حققوه أولًا ثم تابعوا السلوكيات لو هذا من حقكم الدستوري، لكن لو ظللتم تتكشوا في الخصوصيات التي تسلب منا حريات ناضلنا من أجلها كثيرًا.. قد يصبح جهازكم مثل الرجل البركة.

لأني لست بخير فأنتم كذلك

من دراستي البسيطة لعلم النفس في المرحلة الثانوية، كانت هناك بعض التفاسير لنظرة الناس تجاه غيرهم تتم بناء عليها تقسيم الشخصيات إلى أنانية وسيكوباتية ونرجسية وثنائية القطب وغيرها، ومنها أن ترى الناس من زاوية أنك متصالح مع نفسك وأنك بخير، وبالتالي فالآخرون بخير، وهذا النوع شبه نادر، أو ترى الناس على أنهم ليسوا بخير بينما أنت بخير لأنك الأذكى والأسعد حظًا وهذا ضرب من الغرور، أسوأ الأنواع على الإطلاق الذي يرى أنه ما دام ليس بخير فكل البشر مثل نوعيته أو يريدهم كذلك، وهذا نوع يكاد يكون السائد. والانقلاب العنيف الذي حدث

للميديا ووسائل التواصل الاجتماعي فائق السرعة كشفت ذلك جدًا وأرتنا ما كنا نظنه مستبعدًا، الآراء والتحليلات والمقابلات التي هي في المقام الأول على مسؤولية أصحابها، والتي قد تتفق أو تختلف معها وتعبر عن رأيك فيها بديمقراطية، لا يحدث ذلك في المجمل.. فالقابع خلف الكيبورد في مكان ما قد يكون طفلًا أو عالمًا كبيرًا أو شخصًا يمر بالمصادفة، ولأنه محجوب ومستور فقد يلقي بسخائم التعليقات أو يدلى بدلوه في موضوع يجهله بأعنف العبارات وهو في مأمن لأن اسم الأكاونت الذي يتخفى خلف "عصفور الحب" مثلًا وناهيك طبعًا عن اللغة المتعثرة الدالة على قدر ما تعلمه وضحالة فكره الذي أفرز رأيًا لا تستطيع معرفة هل هو مع أم ضد!

وفي المقابلة التليفزيونية مع الممثلة "منى هلا" انزعج الكثير من جرأة آرائها فيما يتعلق بالمساحة بين الرجل والمرأة.. خاصة عندما قالت "إن الناس أحرار في أن يكونوا مثليي الجنس لأن ليس مكاني أن أجري الحكم الأخلاقي على الناس".. وانهالت الشتائم عليها وتجسسوا على حسابها واستخرجوا صورها الشخصية وهات يا سخرية والغريب أن أغلب الشتامين نساء!.. ليس معنى أن أفكارها تتناقض معنا أن نشتمها ونسبها تحت لافتة كبيرة اسمها التدين.. البنت قالت إني لن أحكم أخلاقيًا على الناس ولم تقل مثلًا مفاخذة الرضيعة ولا إرضاع الكبار!.. هناك آداب للحوار

يا سادة حتى مع مخالفينا في الرأي.. إنما اتهامها بالجهل والفشل في التمثيل والفسوق ليس ردًا إنما هو من قبيل أنا والآخرون لسنا بخير.. ولمن لا يعرفها هي ممثلة اشتركت في العديد من الأفلام السينمائية والمسلسلات التليفزيونية، وكانت تقدم (برنامج كوميدى) على النت اسمه "منى توف" تقدم فيه الإعلاميين بخفة دم أيام الثورة ولعله السبب، ولها مقال في موقع +18 تقول فيه (قد يختلف الجمهور على موهبتي.. قد يراني البعض موهوبة، وقد لا يطيق البعض رؤية وجهي أصلًا- خصوصًا أني شخصية رخمة في الحقيقة - هدفي هو إخراج الطاقة في شكل عمل فني.. والله لاقي عملي نجاحًا كان بها.. أعجب به الجمهور خير وبركة، ولو لم يعجب أحدًا ولم يعجبني شخصيًا مش مهم، على الأقل أفرغت طاقتي وشعرت بالانتشاء أثناء العمل). هل هذا كلام واحدة جاهلة بالذمة! وللعلم أنا أراها ممثلة جيدة يعيبها فقط أنها تمثل وفي داخلها إحساس كبير بأنها تتميز عن زملائها في المشهد، لذا تمثل وهي سايبة نفسها وأحيانًا تفقشها الكاميرا وهي تنظر لهم وتقول لنفسها إمتى حيتوب علىّ ربنا من الشغل مع الجهلة دول.

ماذا أنتم بنا فاعلون؟!

من الواجبات الأساسية لوزارة الداخلية - أي وزارة داخلية في العالم- أن تنشر وتعلن أرقام الهواتف المنوط بها خدمة المواطنين، والتيسير عليهم في الحصول على حقوقهم، والحامية لهم من المجرمين والبلطجية والإرهاب، وقد تم ذلك مؤخرًا عبر كل وسائل الإعلام المرئي والمقروء، وهذا شيء محمود، وقد نشرت وزارة الداخلية المصرية أرقام قطاع الأمن الوطني المخصصة لتلقي بلاغات المواطنين حول البؤر الإرهابية، وكذلك الخطوط الساخنة للإبلاغ عن أي أجسام غريبة يشتبه بها، كما نشرت جريدة المصري اليوم بتاريخ 2014/5/26 من خلال التحقيق المتميز الصغير الذي

كتبته الأستاذة حنان شمردل والمليء بطرافة ممتزجة بمرارة جلية في بعض البلاغات التي قدمها الناس الشرفاء، التي تبغي الحفاظ على الوطن من وجهة نظرهم.. ومنها فاعل الخير الذي يبلغ عن رجل إخواني وابنه يعملان في مجال صيانة الكمبيوتر ويشغلان قناة الجزيرة في الليل، كما لاحظ فاعل الخير! وذكر اسم جاره وعنوانه بالتفصيل كي يسهل على الأمن القبض عليه متلبسًا بالمشاهدة! وفاعل خير آخر أفصح عن اسم إحدى الطالبات بجامعة المنيا واتهمها بتنظيم مجموعات من الطلاب لضرب السيدات في أثناء إجراء الانتخابات!.. وأخ لم يتردد لحظة في الإبلاغ عن أخيه متهما إياه بالهرب من الخدمة العسكرية منذ شهرين، ويطالب وزارة الداخلية بسرعة القبض على أخيه الذي يلازم المنزل منذ هروبه وذكر عنوانه بالتفصيل (باختصار لم ير أخاه وهو يجتمع بأناس ذوي ريبة ولا وهو يبيع سلاحه ولا سأله حتى عن أسباب هروبه وبلغ عنه لأنه يلازم المنزل!)

هذا بخلاف الشخص الذي أبلغ عن بعض المعلومات الخطيرة التي جمعها بنفسه! عن عنصر من جماعة الإخوان متخصص في عمل مظاهرات في أيام الجمعة يبدأها من أسفل كوبري الطالبية.. وقد عرف هذا العنصر بأن له ملفًا في أمن الدولة وبأنه فدائي قاتل في فلسطين وسوريا وتابع لمنظمة حماس ويمتلك أكثر من جواز سفر بأسماء وجنسيات مختلفة (يا أخينا.. طالما بذلت كل هذا الجهد

في جمع هذه المعلومات كنت خليها عليك شوية واقبض عليه وكتفه وسلمه لأقرب قسم شرطة وريحنا).

أما أطرف هذه البلاغات من وجهة نظري البلاغ الذي قدمه الأستاذ أسامة إلى قسم الشيخ زايد مزودًا بالمعلومات التي جمعها بنفسه عن أحد الجيران، والتي أضاف إليها بعض التفاصيل وهو يعيد نشرها على مواقع التواصل الاجتماعي.. والواقعة كالآتي: في منزل أسامة شقة تم تأجيرها طبقًا لقانون الإيجار الجديد وسكن بها الأشخاص الملتحون.. لفتوا نظر أسامة فراقبهم وتابعهم.. ووجدهم يأتون في أواخر الليل ويصطحبون معهم أكياسًا سوداء! ويتصرفون بطريقة مريبة تمامًا.. فهم لا يغلقون نوافذ الشقة كسائر الناس العاديين، بل يتركونها مفتوحة بغرض خداع من تسول له نفسه التفكير فيهم كإرهابيين يتسترون خلف النوافذ المقفولة، كما أنهم ينشرون قماشًا أبيض على الحبال في محاولة لإظهار انهم ناس عادية تغسل وتنشر الغسيل، ويتركون هذا القماش على الحبل حتى في الأوقات التي تهب فيها الرياح الشديدة، وتكاد من عنفها أن تقتلع المشابك وتطيح بهذا القماش، وأنهم يرون ذلك ولا يتحركون، وقد أبلغ أسامة القسم الذي للأسف لم يتحرك أيضًا.. ويناشد أسامة شرفاء التواصل الاجتماعي التدخل!

لننظر إلى هذه الأمور بعيدًا عن فكرة كيدية أغلب هذه البلاغات أو وهميتها أو أنها تقدم أحيانًا كوسيلة انتقام من بعض الأشخاص

الذين يعتقد الشاكي أنهم آذوه بحرمانه من حق أصيل له أو ساهموا في تخطيه عند الترقي، أو نافسوه على قلب امرأة، أو حرموه من مكسب كان على وشك الحصول عليه، أو أن مقدمها ليس سليم العقل بل معطوب نفسيًا كالسيكوباتيين أو الساديين، ولنتجنب التحدث أيضًا عن الوقت المهدر من المسؤولين عن الحماية المدنية في البحث عن حقيقة هذه البلاغات، والتكاليف التي تصاحب رحلة هذا البحث، وتأثير هذه البلاغات السلبي، التي قد تصرف النظر من كثرتها عن الخطر الحقيقي.. دعونا نتحدث في عجالة عن تأثير هذه البلاغات الكيدية في المجتمع، وأولها الأذى البدني الذي قد يتعرض له مظلوم لاحقه بلاغ من هذه البلاغات، أو حالات الانشقاق الأسري التي قد تحدث بسبب أن أحد أفرادها قدم بلاغًا كيديًا في قريب له من نفس الأسرة، أو الآثار المدمرة لحالات تربص الجار بجاره.

يا سادة، الأب الذي يبلغ عن أحد أولاده، أو الولد الذي يبلغ عن أبيه أو أمه أو الذي ينسى صلة الدم والنسب ليسوا أبطالًا، وما يفعلونه لا يقره شرع ولا دين، فلا تعلوا منهم وتنفخوا فيهم إعلاميًا!

وأذكر أن صديقًا لي كان ابنه الوحيد يواجه مشكلات كثيرة وهو في أولى مراحله التعليمية، وهذه المشكلات ليست عائدة إلى فشله في التحصيل العلمي، أو قلة نباهته، لكنها راجعة لكونه

طفلًا مدللًا وحيدًا، عنده مشكلات في المواجهة، وكان زملاؤه في المدرسة يسرقون منه الأدوات الدراسية والساندوتشات ويسخرون منه ويضايقونه، ويلوثون رداءه المدرسي بالحبر أو الفلوماستر ويعلقون على ظهره عبارات تسيء له دون أن ينتبه، شكا الأب ما يقاسيه ابنه إلى المدرسين والناظر لكن لم يتوقف الموضوع، هنا طلب الأب من ابنه أن يكتب وقائع ما يحدث في الفصل، حتى يستطيع تحديد الجناة، ثم طالبه بكتابة ما يحدث في الحوش وفي الفصول الأخرى لو مر بجوارها مصادفة، وألا يكتفي بالاسم الأول بل يتقصى حتى يكتب الأسماء ثلاثية، وقد حضرت مناقشة من هذه ذات يوم وأنا في زيارة لصديقي هذا، ووجدت الطفل وأباه في حالة وجد، بما يقرأه الأب من كراسة ابنه ويتابعه الطفل بعينيه، كانت المضايقات قد انتهت منذ فترة بعد أن تعرف الأب على سلوك الأولاد المشاغبين من الملاحظات المذكورة في كراسة ابنه، وخاطب أولياء أمورهم وطالبهم بمنع أولادهم من مضايقة ابنه، وفعلًا توقفت المضايقات وتجنب الأولاد مخاطبة التلميذ أو التعامل معه، وأطلقوا عليه اسم "عباس الخباص"، لكن هذا لم يؤثر في الطفل ولا أبيه بالضبط كما لم يؤثر كلامي في الأب، عندما اتهمته بأنه يساهم في جعل ابنه طفلًا غير سويّ، ثم دارت الأيام ولفت الأيام ونمى إلى علمي - بعد عشر سنوات- بأن ابنه يعاني من مشكلات نفسية، زرته لأطمئن على سلامة الابن، فانتحى بي الأب

وحكى لي بعض ما غاب عني في السنوات العشر، سافر صديقي للعمل في جريدة عراقية وازدهرت أموره، فاستدعى أسرته وألحق ابنه بإحدى المدارس الإعدادية ببغداد، ثم بدأت الأمور تسوء عقب تربص الأمريكان بصدام حسين، الذي أحالته المقاطعة والحصار إلى نمر محبوس، تملؤه الريبة والشكوك تجاه كل طوائف بلده، هنا بطريقة ما اكتشف ضابط مخابرات عراقي موهبة التلميذ في التجسس، واستطاع تجنيده على زملائه الطلاب بالمدرسة الثانوية التي كان يدرس فيها، ثم على أمه وأبيه، وكتب عن أبيه أنه يسخر عند ظهور الزعيم المفدى على شاشة التليفزيون ويقول أحيانًا إن نهايته نهاية سوداء، قُبض على الأب وهشموا كل منقولات البيت، واعتقل وذاق الأمرين، وبعد ستة شهور من المعاناة تدخل بعض المقربين من النظام الحاكم، وتم الإفراج عنه بشرط مغادرة العراق على الفور، في أثناء رحلة العودة البرية بلا متاع ولا نقود أخبرت الأم بأن الابن بعد القبض عليه اعترف لها بما اقترفته يداه وطالبت الأب بألا يقسو على ابنه؛ فقد نال كفايته على يديها أثناء اعتقاله، لم يعاتبه الأب ولم يعاقبه، ورغم ذلك لم يسلم الابن من تأثير ما فعله دون دراية، بدأت تأتيه نوبات عصبية شديدة مصحوبة بهياج أحيانًا، وبرغبة في الانتحار في بعض الأحيان، وأنه لا يمر عام إلا ويقضي أكثر من ربعه في المصحة النفسية.

فهل تدرون فعلًا ماذا أنتم تفعلونه بنا؟

كشف المستور

ذات مساء بعيد في مدينة الإسكندرية، اتصلت بصديقي الذي كان يصطاف في الوقت ذاته على شواطئها كي أطمئن على أحواله، رد بلهفة وطلب حضوري على الفور؛ لأن هناك مشكلة كبيرة بينه وبين زوجته وأم أولاده، وانطلقت بسرعة للقائه منفردًا بصفتي صديقًا للطرفين ولأنه وصف المشكلة بالمصيبة، وفي الطريق إليه بحكم صداقتنا الطويلة وإلمامي بأغلب المشكلات السابقة بينهما استطعت أن أخمن طبيعة المشكلة التي ستتلخص في الغيرة أو اتهامه بأنه يصرف على مزاجه أكثر مما يصرف على بيته، ثم ستختتم شكواها بطلب الطلاق مع التنازل لها عن الشقة

وحق حضانة الأولاد، وغالبًا بتدخل أحد الأصدقاء ستهدأ وتقبل المصالحة.

وجدت صديقي في حالة يرثى لها، وقد قرر أن يطلقها فعلًا لكنه في حيرة من أمره.. كيف سيربي الأولاد من دونها؟ خاصة وهو كان "نافض" يده كلية من البيت وتربية الأولاد، طلبت منه أن يخبرني بما حدث لعلي أتفهم أبعاد المشكلة، وما قاله يتلخص في الآتي: تأخر صديقي في سهرة مع أصدقائه- كما ادعى لها- وهي قلقت من تأخره فاتصلت به على جهازه المحمول أكثر من مرة، وفي النهاية رد عليها صوت حريمي ادعى أن المكالمة خطأ ثم أغلق الخط نهائيًا، وعندما عاد صديقي بعد أن أنهى سهرته واجهته بشتى الاتهامات، أخبرها بأن محموله وقع منه في التاكسي قبيل السهرة، وأنه غير مسؤول عن الذي رد عليها، فمن المحتمل أن يكون المحمول قد وقع في يد زبونة ركبت التاكسي بعده وأرادت أن تتسلى، لم تصدقه الزوجة على الإطلاق واتهمته بأن له عشيقة، وأن هذه العشيقة بالإضافة إلى سفالتها فهي خرابة بيوت لأنها تعمدت أن ترد عليها لكي تفشي سره وتثبت لها أن زوجها يلعب بذيله، تصاعدت المشكلة وتشابك الزوجان، ثم أصرت الزوجة أن تجر زوجها إلى القسم المجاور لكي تشتكيه، وتعالى صوتها من داخل القسم مصممة على أن تحرر المحضر عند الضابط وليس أمين الشرطة، وتم لها ذلك، وعندما بدأت شكواها بأن زوجها كاد

يضربها وتأمل الضابط صديقي الضئيل مقارنة بصحتها ابتسم لا مباليًا، وهنا لكي تشعل الزوجة الموقف أشارت إلى الزوج «وكان يعمل في تلك الفترة ناشرًا وقالت للضابط: وعلى فكرة جوزي ده هو اللي طبع ونشر كتاب (...)، (وكان نشر هذا الكتاب السياسي قد أثار ضجة دفعت الدولة لمصادرته ومطاردة صديقي الناشر للتحقيق معه، وقد هرب صديقي فترة حتى انتهت الضجة وعاد إلى ممارسة عمله) لم يعِ الضابط ما تقوله الزوجة فقال: وإحنا مالنا!، ردت عليه الزوجة: إزاي يا حضرة الضابط؟ ده كتاب ضد الدولة وبيدعوا لقلب نظام الحكم، نظر إليها الضابط طويلًا ثم قال في النهاية: برضوا ده مش اختصاصنا.. فيه جهاز مسؤول عن المطبوعات روحي اشتكيله، أسقط في يد الزوجة ثم اندفعت تخبر الضابط بأن زوجها في جيبه قرش حشيش، هب الضابط واقفًا وأعطاها ظهره وهو يفتش الزوج ثم التفت إليها وقال بحدة: مافيش معاه حاجة.. ممكن تخرجي من قدامي وإلا هوجهلك تهمة البلاغ الكاذب، جرّت الزوجة أذيال الهزيمة وخرجت، بينما استوقف الضابط الزوج حتى ابتعدت، فتح الضابط كفه وأراه قرش الحشيش ووبخه طويلًا على تعاطيه، ثم أعدم القطعة أمامه وقال له: أنا عملت دا عشان مستقبلك.. وأنت مسؤول عن نفسك لو اتشافت معاك حاجة زي دي تاني. بعد أن شكر الضابط هم صديقنا بأن يخرج لكن الضابط استوقفه وقال له: أنا ممكن أطلب منك طلب؟

رد صديقنا بسرعة: طبعًا، قال له الضابط: لما تخرج من هنا.. عند أقرب مأذون تطلق الست دي فورًا.

هذه الحكاية الحقيقية قد تشير إلى أن هذه السماحة التي هبطت على ذلك الضابط ممكن أن تكون وليدة معاناة حقيقية مع زوجة مماثلة، أو لعله ترفق برجل بدا كالحمل الوديع بينما الزوجة بجواره تبدو وحشية ومفترية- ما علينا من كل هذا- في الحقيقة أنا مهتم بهذا التحول السريع والمفاجئ عند بعض الزوجات الذي يدفعهن في بعض الأحيان لارتكاب حماقات قد تؤدي إلى مصائب كبرى.. فأنا أعرف تلك الزوجة جيدًا وشهدت لها عدة مواقف بطولية في أثناء اعتقال زوجها بسبب المشاركة السياسية، أو النشر، وحتى عندما كانت تداهم زوجها مشكلات مالية كانت تبيع ذهبها ومجوهراتها من تلقاء نفسها حتى تنكشف الغمة، ما تلك الغيرة الحمقاء التي دفعتها لمحاولة وضع زوجها في السجن.. حب إيه دا الذي نهايته هذا الجنون!

لقد تذكرت تلك الواقعة بسبب الحادثة المؤسفة الخاصة بتعذيب الأولاد الأيتام في إحدى دورالرعاية، لم أهتم بالتحريات التي ذكرت بعد الواقعة بأن صاحب دار الأيتام غير سوي نفسيًا، أو أنه حاصل على الإعدادية، فهذا تقصير من وزارة التضامن التي تسمح بإنشاء هذه الدور ولا تهتم بمتابعة نشاطها. الذي لفت نظري أن

زوجة المتهم هي التي صورت مشاهد التعذيب وبثتها عبر شبكة التواصل الاجتماعي، مع أنها كانت تعمل بهذه الدار منذ عام 2006 وكانت مسؤولة عن تفريغ شرائط المراقبة الموضوعة لكي تتابع سلوك الأولاد.. ومن المؤكد أنها رأت المئات من وقائع التعذيب المماثلة ولم تتحرك، فمن المستبعد أن يتغير سلوك صاحب الدار ويصبح متوحشًا فجأة.. كما أن هناك ما يريب في أقوال الزوجة في الصحافة.. إن الأمر بدأ بأنها رفعت قضية خلع على زوجها بحجة أن له علاقات نسائية متعددة، ورفع زوجها عليها دعوى يتهمها بالزنى.. وأنها تقدمت لوزارة التضامن بطلب للحصول على ترخيص دار أيتام وتعثرت في الحصول عليه.

إذن الأمر كله لا يتعدى المتاجرة بالأطفال المساكين، لذا يجب أن يتم محاكمتها مع الفاعل الأصلي هذا من جهة القانون.. لكن ما زلنا ننتظر الإجابة عن السؤال المهم: ما الذي غير سلوكنا وبدله إلى أسوأ درجاته في ظرف ما يقل عن نصف قرن فقط؟ بينما عشنا عشرات القرون في تماسك مجتمعي، خاصة في علاقة الزوجة مع زوجها.

في الصعيد وحتى وقت قريب جدًا، الست يجب أن تلازم زوجها حتى ولو كان حسب المثل الدارج (عضم في قفة)، ويحدث كثيرًا أن يهرم رب البيت وتحرص الزوجة على هندمته ووضعه أمام

البيت وخدمته، ثم ترد نيابة عنه السلام للعابرين وأبناء السبيل، وإذا ما لازم الفراش وحدثت مشكلة عائلية تسمع شكاوى المتشاكين ثم تدخل إليه لاستطلاع رأيه، وتعود بالرد الذي يلتزم الجميع به، طالما أنه صادر عن رب الأسرة، حتى لو كان فيه غبنًا أو غلظة، أو يحرم بعض أفراد الأسرة من بعض الأفدنة والأطيان، وبالرغم من أنهم يدركون أن من بالداخل قد يكون غائبًا عن الواقع المعاش، أو غير مدرك لما يدور من حوله.. لكنهم يحترمون رأي الكبير، وبالتالي يحترمون القول الذي نقلته الزوجة عنه.. تلك الزوجة التي لازمته طويلًا وتحملته وتحملها ولم تكشف مستوره مطلقًا في ذروة أي خلاف.

٧

لو سمحت نزلني قدام الكنيسة

بين يدي الآن عدد متميز من مجلة (صباح الخير)، صدر بتاريخ 6 يناير 2015، تحية لشركاء الوطن الأقباط في عيدهم، وقد أثارت انتباهي موضوعات شتى بخلاف الموضوعات التقليدية المعتادة في هذه المناسبات، أولها موضوع معنون باسم "حارة النصارى"، كتبه مؤلف الكتاب الصادر بهذا الاسم، وهو الأستاذ شمعي أسعد، ويحكى فيه أن دار نشر مصرية طلبت منه كتابة كتاب عن الأقباط وكان سياق طلبهم كالتالي "إن المسيحيين يعرفون كل شيء عن المسلمين، بينما لا يعرف المسلمون إلا القليل عن المسيحيين" وهو كلام حقيقي.. ويضيف الكاتب أنه حاول إلقاء بعض الضوء على

حياة الأقباط في مصر، بهدف تقريب المسافات، بجانب التعريف ببعض المفاهيم المسيحية الخاصة بطقوس العبادة فيما يشبه قاموسًا تعريفيًا مختصرًا. ومن الأفكار التي تناولها الكتاب وانتقدها في سلوك بعض المسلمين وكلامهم العفوي، مقولات مثل: (اللهم اشفِ مرضى المسلمين) ويتساءل: هل حقًا لا يرغب المسلمون في أن ينال الشفاءَ مريض غير مسلم؟! كذلك في حالات الوفاة تلك الجملة الشهيرة الصادمة: (اللهم ارحم أموات المسلمين) ويقول المؤلف إنه لا يحجر على أحد بالطبع في دعواته، فهو حر، لكنه يطلب فقط مراعاة مشاعر الآخرين، فكما أن الموت أو المرض لا يفرقان بين المسلم والمسيحي، فكيف نفعل نحن ذلك ونحن نصلي أو ندعو؟! ثم يحكي المؤلف عن بعض المواقف التي تتوارى خلفها عنصرية مقيتة، منها أن راكبًا مسيحيًا لإحدى عربات النقل العام لاحظ أن السائق كان طيبًا بما يكفي لأن يقف لكل من أراد النزول حتى بعيدًا عن المحطة الرئيسية، لذا استعد ووقف بالقرب من باب النزول وقال للسائق بخجل وبصوت منخفض: لو سمحت نزلني قدام الكنيسة. وهنا تحول السائق الودود وقال بغلظة: هي دي محطة إن شاء الله هي كمان ولّا إيه؟ وعندما أجابه الفتى باستسلام: نزلني في أي حتة براحتك. أوقف السائق الباص وأنزله، ثم انطلق في طريقه، فقابلته كنيسة أخرى فقال السائق ساخرًا: محدش عايز ينزل هنا كمان؟ دون أن ينتبه أن هناك أقباطًا ما زلوا في الباص.

ونصل إلـــى الموضوع الثاني الذي كتبتــه بحرفية أمل فوزي وعنوانه "هو مسيحي.. بس كويس؟"، وتلتقط فيه بمهارة الكلاشيهات التي صـــارت محفوظة ويقولها الناس ببـــراءة وهي تحوي ألغامًا مريعة، وهي تشــبه الصورة النمطية للشــيخ بجوار القسيس أمام الكاميرات، التي تشـــى بزيفهـــا كعبارة: "أنا أعــز أصدقائي من المسيحيين" أو "جارى مســيحي بس ما شفتش منه حاجة وحشة" أو "مديري مســيحي بس راجل محترم جــدًا" أو "صاحبة المحل مسيحية بس حاجتها نضيفة قوي".. ومئات العبارات الشبيهة التي تكرس الفرقة والعنصرية دون أن ينتبه قائلوها.

الموضوع الثالث كتبته ناهد الشـــافعي عن تجربة شـــخصية، فوالدتها مســـيحية وهي مســـلمة، وبدايته عن دهشة الطبيب الذي جاء لمعالجة والدتها فبوغـــت بالبيت الذي يحوي البراويز المعلقة وبداخلها آيات قرانية ومصحف على الكومودينو وإنجيل وأيقونات في غرف أخرى، ثم تتذكر أن والدتها لم تضع صورة للمســـيح أو العـــدرا إلا بعد أن كبر أولادها، وكانت تكتفي بوضعها في دولابها المغلـــق وتختلي بهـــا عند الحاجة، ثم تحكي ناهـــد بتأثر عن كيف زارت أمها المســـيحية الكعبة بعد وفاتهـــا، حين كلمتها صديقة لها من الحرم فطلبت منها ناهد الدعاء لأمها فاستجابت الصديقة وعلا صوتها فأمّن الطائفون حول الكعبة الدعاء.

يسعدني شكر كل القائمين على هذا العدد الممتاز، مع عتّاب لأنه عدد خلا من الرسوم الكاريكاتيرية على غير عادة مجلة صباح الخير، التي صدرت عام 1956 لهذا الغرض على وجه التحديد، كما أهنئهم بعيدهم الـ 59 الذي سيحل غدًا 17 يناير.

فضيحة الزواج على الطريقة الملاديفية

فـــي أثناء زيارتي لبريطانيا بعد أن دعيت إلى حضور معرض الكتاب الدولي بلندن الذي كان قد خصص دورة عام 2009 للعرب كضيف شـــرف، لفت نظري أمران خاصان بســـلوكنا في الخارج كمصريين وعرب، الأول كنـــا (أنا وبصحبتـــي كاتبان عربيان أحدهمـــا من اليمن والآخر من ســـوريا) قد تهنا في شـــوارع لندن وأزقتها وكان الوقت قد شـــارف على منتصـــف الليل، وما أدراك مـــا منتصف الليل في لنـــدن كيف يكون والمحـــال التجارية تغلق أبوابها عند العاشـــرة وســـيارات تمرق بجوارنا، وبعدها بنصف

ســـاعة لا ترى أحدًا في الشوارع إلا بضع سيارات تمرق بجوارنا كومضات الفلاش، ظللنا نتســكع ونحاول أن نحـــدد الوجهة التي ســنتخذها لنقترب من الأوتيل وتشجعنا وقررنا بالإجماع أن نوقف تاكسي ونعطيه الكارت المدون به اسم الأوتيل وعنوانه كي يوصلنا إليه، وكان هذا قرارا في منتهى الشــجاعة لأن أجرة التاكســـي في لندن شيء مروع كما سمعنا بذلك، وكما حذرونا عند وصولنا إلى لندن، حتى هذه المغامرة باءت بالفشـــل فيبدو أننا كنا قد أوغلنا في مناطـــق تكاد تكون مهجورة ولا تمر بها التاكســـيات، اخترنا جهة وقررنا الســـير فيها، وبعد مســـافة غير قليلة وجدنا ميدانًا صغيرًا وعلى ناصيته يقبع كشـــك متوسط الحجم يبيع السجائر والبسكويت والبقالة الصغيرة، الكشـــك يماثل بالضبط الأكشاك المصرية التي تملأ شوارعنا بالبضاعة المكدســـة أمامه وبالحوامل المعدنية التي على متنها أكياس الشيبســـي وبرطمانات المربى وماكينات الحلاقة ذات الاســـتخدام المتعدد، وبداخل الكشك يقبع صاحبه لا يبين منه إلا وجهـــه الملثم بالكوفية وعيناه المقلقتـــان من خلف نظارة طبية بعدسات سميكة، تطوعت أن أساله عن أقرب مكان أستطيع أن آخذ منه مواصلة عامة إلى الأوتيل، وبينما أنا أســـتحضر مفردات اللغة الإنجليزية التي ستســـاعدنا في توصيل ســـؤالي إليه، وجدته خرج فجأة من الكشك وسلم علينا بحرارة مرحبًا بنا باللغة العربية، وقال لي إنه مصري ومقيم في لندن منذ عشـــرين عامًا، وأجلســـنا على

صناديق المشروبات الغازية وألقى على أجسادنا بقطعة قماش أشبه بقماش الخيم كي يقي أجســادنا من البرد، وصمم على أن نحتسي الشــاي الذي جهزه على موقد صغير ثم أغلق كشكه كي يسير معنا لمســافة تتعدى الكيلو متر حتى أوصلنا إلى محطة الأتوبيس الذي ســينقلنا إلى الأوتيل، وسألنا إن كنا نحتاج أموالًا، معتقدا أن نقودنا قد نفــدت، رفضنا فقد كان معنا ما يكفينا فغادرنا عائدًا مرة أخرى إلى الكشك الذي يمتلكه ويعمل به ليلًا؛ لأن له عملًا آخر في مساء كل يوم في أحد المطاعم.

لن تتصوروا كيف كان لهذه القصة البسيطة المعبرة تأثير عميق بين أصدقائي العرب الذين شاركوني أحداثها وبقية الوفد الذين استمعوا إليها.. ثم حدث الأمر الثاني.

بعــد هــذه الواقعة بيومين، ولحســن الحظ كنــت بمفردي في ميدان من أكبر ميادين العاصمــة البريطانية، وذهبت لتفقد الجزء المخصص لبيــع الطعام والمطاعم، وكانــت كلها متراصة جوار بعضهــا ومكتوبًا عليهــا جنس الطعام الذي تقدمــه كأنها في ذات الوقــت تعلن عن حضــور بلدها في هذه الســوق الكبيرة، أطعمة مكسيكية وأمريكية وهندية وإيطالية وفرنسية، ولفت نظري طابور كبيــر أمام أحدها، وكان مكتوبًا عليه المطعم الســكندري بالعربية والإنجليزية، أســرعت إليه فوجدته يقدم ساندويتشات الطعمية في

خبز الكيزر وعليه الطحينة والكاتشب وشرائح الطماطم مماثلة لساندويتشات الهمبورجر التي يقدمونها هناك، لكن السعر هنا كان أكثر مرة ونصف المرة من سعر الساندويتشات في كل المطاعم المجاورة، فرحت لإقبال الناس على هذه الأكلة الشعبية، وصبرت على وقوفي الطويل في الطابور، ثم اقترب دوري، ولم يكن أمامي إلا فتاة إنجليزية جميلة تستعد لإعطاء طلبها حتى يجهزوه بسرعة ثم ينادوها، المحل صغير جدًا في حجم المحال المجاورة، واجهته حوالي 2 متر بعمق أربعة أمتار يفصل العمق قطع خشبي في المنتصف وبه باب صغير يفضي إلى المطبخ بالداخل، وفي الواجهة عاملان مصريان أحدهما يأخذ النقود ويناول الطعام والآخر يحضر البضاعة في المطبخ ويجهز الساندويتشات.. الشخص الذي يتناول النقود ويتلقى الطلبات كان في تلك اللحظة مبتسمًا جدًا ويفتعل أنه يسمع ما تطلبه الفتاة الحسناء، كانت الفتاة تصف ما تريده بدقة من سلطات ومقبلات وكان صاحبنا تتسع ابتسامته وهو يقول لها بلغة عربية كلامًا فاحشًا جدًا عن صدرها وشفايفها وما ينوي أن يفعله بها إذا ما تمكن منها.. وزميله الآخر الذي يجاوره بالكاد يخفي ابتساماته، والفتاة تعتقد أنه يجاملها وتبتسم في سعادة، فور انصراف الفتاة نهرته بشدة على كم السفالة والبذاءة التي خرجت من فمه تجاه الفتاة المسكينة التي تساعده في كسب عيشه، وعلى إثر علو صوتي خرج صاحب المكان من الداخل ووبخه بشدة وتوالت

اعتذارات الرجلين لكنني خرجت مستاء جدًا من هذا الموقف الذي تذكرته منذ أيام وأنا أشـــاهد على اليوتيوب لقطات قصيرة لحادثة واقعية تحت عنوان "فضيحة زواج في الملاديف".

والملاديف هي مجموعة من الجزر في آسيا تقع على المحيط الهندي، وبها أكثر من 95 منتجعًا لقضاء شهر العسل والإجازات، وتعتمد اعتمادًا كبيرًا على السياحة بما تملكه من جزر وأماكن بكر وبراري طبيعية صامتة، وقد صارت جاذبة جدا للسياح الغربيين وفي إحدى جزرها كان السياح كبار السن يفتنون بمشاهدة طقوس الزواج الملاديفي التي كانت تدهشهم جدًا، ثم رأى أحدهم أن هذه الفكرة يمكن تطويرها بحيث تجتذب سياحًا أكثر، ومن هنا كان الأزواج يرغبون السياح بأنه يمكن تزويجهم مرة أخرى طبقًا للتقاليد الملاديفية نظير مبالغ ليست ضخمة، وكانت تلك الفكرة تلقى قبولًا مدهشًا من هؤلاء السياح، ويبدأ أصحاب هذا المشروع في إقامة طقوس الزواج لهم، ومنها أن يرتدي الزوجان ملابس خاصة بهذه المناسبة ويرقصا رقصات معينة ثم يجلسا أمام الشخص الذي سيعمدهما زوجين ويرددا خلفه الكلمات التي ستربطهما إلى الأبد وتجعلهما زوجين على الطريقة الملاديفية.. كل هذا لا غبار عليه.. المشكلة الحقيقية كانت في الكلمات التي يقولها الشخص الذي يعلنهما زوجين؛ لأن الكلمات هذه كانت باللغة الملاديفية ويرددها وراءه الزوجان كالببغاء.. ومن هذه الكلمات: نحن عنصر نجس..

سننتهي في أسفل الجحيم.. نحن لا نستحق العيش.. نعيش على القذارة ونقتات على الدم.. وبعد أن يردد الزوجان هذه الكلمات باللغة الملاديفية يرقصان في سعادة.. تسربت هذه الفيديوهات وتمت ترجمة الكلمات التي تقال باللغة الملاديفية وحدثت فضيحة كبرى كادت تودي بالسياحة في بلاد الملاديف.

الذي يدهشني فيما سردته أعلاه، استغلال جهل الآخر باللغة أو اللهجة، والسخرية منه ومحاولة النيل منه، الذي ينم عن خسة ووضاعة، حتى لو فرضا كان لك موقف مخالف مع الآخر، فلا بد أن تواجهه بلغة يفهمها وأن تكون قادرًا على تداعيات ما تفعله، لكن أن تتخفى وراء جهل الآخر بما تقول وتسبه وتلعنه أو تقول له كلامًا مهينًا أو مبتذلًا، فهذا يحط من إنسانيتك وينزل بها درجات، فما بالنا بشخص أتى خصيصًا ليتعرف على حضارتك ويسهم بنقوده في إسعادك، وكلامي هذا ينطبق أيضًا على بعض العاملين بمهنة السياحة عندنا ويسيئون لها جدًا، وعندما تقل أعداد السياح يتباكون.

١

المجد للصعاليك

الشاعر الصعلوك الذي يعيش اليوم بيومه، أضناه البحث طوال الليل عن صديق أو محب يقرضه بعض النقود لعشائه واجرة مواصلاته، لكن لم يساعده أي صديق ممن التقاهم في تلك الليلة، فمنهم من ادعى أنه في رحلة بحث عن مقرض كريم، ومنهم من أقسم بأنه لا يمتلك غير نقود المواصلات، ومنهم ما إن لمحه تفاداه وانزوى في شارع جانبي، وأدرك الشاعر أن هذه ليلة سوداء كتب عليه فيها أن يجوب الشوارع حتى الصباح في هذا الصقيع، وكانت مخيلته تدفع أمام عينيه بصور لمقاهٍ ليلية سبق أن تردد عليها، لعله يختار أحدها ويقنع جرسونه بالصبر عليه بضعة أيام أخرى،

لكن عقله حذره من الأفكار الرومانسية لمخيلته، وذكره بغباوة هؤلاء الجرسونات الذين بمجرد رؤيته يطالبونه بالحساب القديم ولا يستمعون لمبرراته ولا يأبهون لظروفه ويجرسونه ويطردونه ويتطاولون عليه أحيانًا.

قرر صاحبنا التوجه إلى محطة السوبر جيت بميدان رمسيس، ليجلس مع منتظري الباصات إلى الإسكندرية، ويتظاهر بأنه مسافر ويقضي الليل في مسامرتهم ويدخن سجائرهم حتى الصباح، وفي الطريق إلى هدفه مر على "بار" صغير مندس وسط حوانيت الشارع، وتطلع من شباكه فوجد أحد المبدعين الكبار الذي نال جائزة ضخمة من جوائز الخليج منذ عدة أشهر قليلة فائتة، فشعر صاحبنا بأن الحظ يحالفه وقرر الدخول، دون أن يدري أن كاتبنا هذا منذ حصوله على هذه الجائزة الضخمة وقد تغير تغيرًا بشعًا، بسبب أنه صار هدفًا للمقترضين والأفاكين والمتظاهرين بحب إبداعه الذين ينهون مدحهم لأعماله بشرح ظروفهم الصعبة، ثم يطلبون منه قرضًا حسنًا.

وقد زهق صاحبنا منهم واختفى من الأماكن التي يترددون عليها، واكتشف هذا المكان وظن بهذا أنه قد نجا، لذا عندما دخل عليه الشاعر الصعلوك تغير وجهه واربد وأضمر في نفسه ألا يعطيه جنيهًا واحدًا، وظل يستمع إلى الشاعر وهو يمتدحه بعيون

زجاجية، ثم طلب له زجاجتي بيرة وراقبه وهو يمسح طبق الجبنة مسحًا وينسف طبق الترمس نسفًا، وعندما طلب الشاعر القرض الحسن، ادعى الكاتب أن المبلغ الذي حصل عليه وضعه في وديعة، وليس بحوزته غير حساب المشروبات، وظل الشاعر ينزل بسقف طلباته حتى وصل إلى مبلغ 20 جنيها فقط تساعده على البقاء لعدة أيام قادمة، وزهق الكاتب من الإلحاح فطلب الحساب من الجرسون بغلظة وخرج، والشاعر مصرًا في داخله على قدرته في التأثير عليه ونزع النقود منه، وكان يتأبطه حتى لا يتعثر وفي الوقت نفسه يكرر الموال، ووصلا إلى محل لبيع السجائر واشترى الكاتب علبة سجائر ثمنها أيامها 10 جنيهات، ودفع خمسين جنيهًا وترك الباقي للبائع نكاية في الشاعر، وما زال الشاعر يظنه يمزح حتى أشار الكاتب لسيارة تاكسي واستقلها وتركه، اغتاظ الشاعر لبضع ثوان، ثم تماسك وعاد مسرعًا إلى بائع السجائر وهو يلطم خديه ويخبر البائع بأن الرجل الذي اشترى السجائر هو والده السكير، وأن أمه كلفته بمتابعته لأنه يضيّع نقوده في الخمارات ولا يترك جنيهًا واحدًا في البيت يتعايشون منه، وفي لحظة أو هنيهة تعاطف البائع مع الشاعر الصعلوك وناوله باقي النقود. شاعرنا هذا له حكاية أبدع من هذه، حضر مرة افتتاح معرض فني لسيادة الوزير الفنان، ولم يتمكن من الدخول وتحية الفنان لحشود الفنانين ورجال الأعمال والوزراء والسفراء، لكن مثل صديقنا هل يرجع خائبًا! لقد

عاد في مساء اليوم التالي بعد انفضاض المولد، وجاب القاعة كلها مستمتعًا بالمعروضات ثم وقف طويلًا أمام أكبر لوحة بالمعرض، طويلًا جدًا حتى لم يبق بالمعرض غيره وحان وقت الإغلاق، تقدم منه المسئول وطالبه بالانصراف ثم استدعى أفراد الأمن، وهو يشير إلى اللوحة ويقول بإصرار إن هذ اللوحة سحرته وأدخلته جواها وهو محبوس بداخلها! وهاتولي الفنان عشان يخرجني منها، ولم تفلح جهودهم في إخراجه حتى جاء الوزير الفنان وأخرجه من اللوحة بعدة رزم مالية كما يقولون.. المجد للصعاليك.



إنت داخل مسمط يا عم الحاج!

في إحدى زياراتي لسور الأزبكية أيام كان مخصصًا لبيع الكتب القديمة والنادرة، لمحت سيدة أرستقراطية شيك تغادر أحد المحال الصغيرة ويتبعها سائقها أو معاونها، وسعدت باهتمام بعض هذه الطبقة بالكتب، ودخلت المحل وأخبرت البائع بذلك فضحك جدًا ثم ناولني ورقة مطوية كانت أمامه وأومأ لي بفتحها، وفوجئت بأنها (بلان) هندسي لمكتبة ضخمة فخمة بالرفوف والأدراج والقواطع المحددة بدقة والمبين أبعادها طبقًا لمقياس الرسم، وقال لي البائع إن السيدة قد اشترت (فيللا) جديدة وقررت جعل المكتبة تتصدر طابقها الأول، وقد أتته بالبلان كي يختار لها مجلدات الكتب

المناسبة للرفوف، بشرط كتابة اسم الكتب بماء الذهب على الكعوب حتى يراها الضيوف، ولن تناقشه في المحتوى طالما الكتاب ضخم وكعبه سمين.

وفي صالة السفر بأحد المطارات نسي مسافر كيس بلاستيك فخمًا به بعض الكتب، لمح الكيس مسافر في آخر طابور الدخول، فخرج من الطابور وهو يقول إن أحدهم نسي كيسه، وعندما فحصه قلب شفتيه لمتابعيه وقال باستهانة: دي كتب! ثم تركه في مكانه، وبعد أن خلت القاعة لمح عامل النظافة الكيس فتسحب ونظر في الاتجاهات المتعددة، ثم اطمأن أنه لا أحد يراه، وجذب الكيس متجهًا إلى ركن بعيد، ولما قاده فضوله لرؤية ما به طفح الغيظ على وجهه وهو يقول: كتب! ثم ألقاها بسلة المهملات.

وقد سرق مكتبي من مدة قريبة، وما علينا من الأجهزة الإلكترونية والنقود التي سلبت، المدهش أن اللص لم يجد حقائب يضع فيها الكمبيوتر و"الدي في دي" والتليفزيون الصغير، فأفرغ شنط الكتب الجديدة واستخدمها في تعبئة المسروقات وألقى الكتب على الأرض، ولم يسرق كتابًا واحدًا، لكن الشهادة لله فتح بعض الكتب الموجودة فوق المكتب وتركها مقلوبة على سطحه، ولم يفتحها ليطالعها بل لاعتقاده بأني قد أخفيت بعض النقود بداخلها، كما يفعل البعض وقد كنت أفعل مثلهم أحيانًا.

ما كل هذا العداء للكتب الذي تسرب أيضًا إلى بيوتنا وبيوت أصدقائنا، الأم تعتبرها بمثابة خراج يجب إزالته وتدعي أنه يشغل البيت، وأن الكتب تلم الغبار والأتربة والحشرات، وكل هذا لأنها تستنكف المرور عليها بالرياشة مرة في الأسبوع أو تريد أن تضع مكانها "بوفيه أو مطبقية" تضع فيه مشترواتها من الأطباق والملاعق والفضيات التي تنوي استعراضها أمام الضيوف المهمين، والذين على الأغلب لا يأتون لأن سقف أهميتهم يرتفع كل فترة في تقديرها! والزوجة تعامل الكتب بعداء أكبر وتعتبرها ضرة لها، فأنت تختلي بها أكثر مما تجلس معها، ولا يهمها إن كنت ترتزق منها فمهما تكسبت، تظل تلح وتطلب منك أن تعمل بمهنة أخرى كأنها تستعر منها وذلك بحجة أنك لا بد في البيت لا بتخرج ولا بتدخل والجيران فاكرينك عاطل!، وللعلم الهم الكبير لأصدقائي الكتاب الآن هو إخلاء المكتبة طبقًا لأوامر سلطوية عليا، وعدم إدخال كتب جديدة إلى البيت والتهديد ببيع ذخائر المكتبة إلى بائع الروبابيكيا، كأن بين الزوجات والكتب عداء تاريخيًا كعداء النمس للثعبان.

وبالمناسبة يقام الآن معرض القاهرة الدولي للكتاب في دورته الـ47 فكل سنة وأنتم طيبون، وسنرى فيه الكتب من كل نوع وشكل من دور نشر عربية وغربية، وبأسعار مخيفة، لكننا سنشتري الكتب ونتحين الفرص لإدخالها البيت ونتحايل على وضعها بالمكتبة، ثم سنقرأها لنستمتع ولن نأبه للتهديدات.

وهناك واقعة طريفة خاصة بالكتب تستحق أن تروى: في إحدى زيارات الرئيس المخلوع حسني مبارك لافتتاح معرض الكتاب، تأمل الكتب المعروضة بدهشة وتعجب وقال: كل دي كتب! هو فيه إيه يا عم الحاج.. إنت كنت فاكر إنك داخل مسمط! (المسمط هو مطعم يقدم لحمة الراس وبقايا الذبيحة كالطحال والجوهرة واللسان والكرشة والممبار وخلافه).

الفرنسيون أيضًا دمّهم خفيف

عند أحد كمائن الطرق اشتبه فيهما قائد الكمين وكان برتبة ملازم أول، ويبدو أن البرد وقلة الحركة جعلته يركز على هذين الشخصين اللذين لم يهتما بالكمين، وظلا يتحدثان معًا دون اهتمام بالكبسة واستفزا بذلك الضابط الشاب، فأمرهما بالوقوف وطلب منهما البطاقات بغلظة وأحس بانه وقع على صيد سمين عندما وجد أن أحدهما بطاقته مهترئة والآخر لا يحملها من الأصل، وتم اقتيادهما إلى حجز سجن الوايلي إلى أن يتم ضمانهما، وكانت الأحوال في تلك السنة شائكة سياسيًا، لذا فوجئنا بزحام شديد داخل غرفة الحجز ضايقت صديقه جدًا، لدرجة جعلته يهز رأسه ونصف

جسده العلوي كأنه في حلقة ذكر أو حفلة زار وهو يقول "زحمة.. زحمة" مما جلب الوحى إلى داخل الزنزانة الضيقة ووجد نفسه يكتب أغنية "زحمة" كاملة في حجز القسم على إيقاع حركة صديقه المجذوب بالكلمة، والأغنية تقول في بعض أجزائها (زحمة يا دنيا زحمة، زحمة وتاهوا الحبايب، زحمة ولا عادش رحمة، مولد وصاحبه غايب، آجي من هنا زحمة وأروح هنا، زحمة، هنا أو هنا زحمة، زحمة ومعطلاني وان رحت ومالقيتوش، أخاف أروح له تاني في ميعادي ومالقاهوش)، وبالإضافة إلى عذوبة صوت المطرب وشجنه؛ تعود أهمية هذه الأغنية التي شدا بها المطرب احمد عدوية إلى انها أول أغنية تكسر حاجز المليون نسخة في سوق الكاسيت المصري.

والــذي كتبهــا هو صديــق الحجز الشــاعر الجميل "حســن أبوعثمان"، الذي كان يفخر بمهنة الحلاقة التي احترفها واشــتهر بها في المحلة الكبرى مســقط رأســه، والذي قدم عددًا كبيرًا من الأغاني الشهيرة منها أغنية "عرباوي" التي غناها المطرب محمد رشــدي، بالإضافة إلى أغلب أغاني أحمــد عدوية مثل "حبة فوق وحبة تحت" و"أديك تقول ماخدتش.. وإن خدت ما تدنيش"، و"كله على كله"، وهذا الشــاعر الجميل خفيف الروح والدم الذي ظلم في حياته وفي مماته والذي لا يتذكره أحد تقريبًا، له حوارات صحفية في منتهى اللطف مليئة بالتحليلات الشعبوية الظريفة، خاصة وهو

يرد على منتقديه الذين اتهموه بالابتذال وانعدام الرؤية والمضمون فيما يكتبه، وانهالوا عليه بسهام النقد اللاذع من عينة (أنه لا يوجد بها تشظي ولا بنيوية ولا تكسر مركزية اللوجوس)، وقال الشاعر حسن أبو عتمان مدافعًا عن مضامين أغانيه، بأنه بعد نكسة 1967 كتب أغنية "سلامتها أم حسن" وكان يقصد بأم حسن "مصر" التي أصابتها آلام موجعة، وكان يطيب خاطرها بقوله "سلامتها أم حسن من العين والحسد"، وبعد انتصار أكتوبر كتب أغنية "كله على كله" كيدًا في العدو الصهيوني، والذي يقول فيها "كله على كله.. لما تشوفه قوله.. هو فاكرنا إيه.. مش ماليين عينيه" رحم الله شاعرنا الجميل، ولعن المتثاقفين الذين أجبروه على الدفاع عن أغانيه الشعبية البسيطة بمثل هذا الكلام "المجعلص"، ورحمنا ولطف بنا من ازدحام مدينة القاهرة الفظيع الذي جعلها تتبوأ أحد المراكز الأولى في قائمة أكثر المدن ازدحامًا وضجيجًا، والذي ذكرنا بهذا الشاعر وبأغنيته التي تحدث فيها عن ازدحام الحجز في غرفة ضيقة فأصبحت صالحة للتعبير عن ازدحام مدينة كبيرة، كما له الفضل في تذكرتي بجلسة مع أديبنا الكبير بهاء طاهر في مكتبة الديوان بالزمالك منذ بضعة أعوام، وكان يجلس في انتظار صحفية فرنسية حددت موعدًا معه لإجراء حوار عن أحدث رواياته المترجمة آنذاك إلى اللغة الفرنسية، وكانت قد تأخرت عن موعده قليلًا فاستبقاني لحين حضورها، لكنها تأخرت أكثر، وكان

هذا أمرًا عجيبًا بالنسبة لأجنبية تحترم المواعيد، وفات على الموعد أكثر من 45 دقيقة فنهض الأســتاذ بهاء معلنًا أنه لن ينتظرها أكثر من هذه المدة، ثم فوجئنا بها تدخل علينا وهي تلهث وآثار العرق لم تجف بعد من على وجهها، وظلت تعتذر للأســتاذ بهاء فترة كبيرة حتى رضي وجلس، ثم ســألها عن ســبب التأخير، فأجابت بعفوية بأنها اتفقت مع زوجها الفرنســي- المحب أيضًا للأستاذ بهاء- على أن يصطحبها لمقابلته، ونزلا من الفندق ســويًا حتى واجها طريق الكورنيش الذي كانت السيارات فيه تندفع بجنون، وكان لا بد لهما أن يعبرا الطريق حتى يأخذا التاكســي من الجهة المقابلة، وانتظرا لمدة 20 دقيقة ولم يتمكنا مــن العبور، فاعتذر زوجها عن الذهاب معهــا وعاد إلى الفندق بعــد أن قال لها: لا بــد أن يضحي أحدنا ويذهب لمقابلة الأســتاذ بهاء، وعلى الثاني أن يعود إلى الفندق كي يربي العيال.

ماري أنطوانيت ورائحة الشيشة

أن تجلس في ظهيرة يوم حار جدًا في محل - بمثابة مطعم وكافيتريا- عريق بمدينة الإسكندرية عروس البحر الأبيض سابقًا شيء رائع، ففضلًا عن الارتواء الجسدي ثمة جلاء بصري يغشاك من فرط جمال الأبنية والمحال القديمة، المحل رحب جدًا والسقف العالي يشرح الصدر، لكن النفس الأمارة بالسوء غالبًا ما تدفع إلى عينك بما يكدرك من تحولات المكان، فالنوافذ الطويلة العملاقة مغلقة ومسدل عليها الستائر؛ لأن من الصعب فتحها حتى لا تهاجمك عوادم السيارات والأصوات أو حجارة الصبية العابسة، واستعاضوا عنها بتكييفات كبيرة زرعوها في الحوائط

المدهونـــة بالأبيض خصيصًا لتتوافق مع لون التكييفات، وهو لون لم يتناسب مع وسادات الكراســـي والكنب البنية المتناسبة مع لون الخشـــب السائد في المكان، فحتى الثريات الضخمة من خشب فائق الجودة، ولا توجد آثار تدل أنهم زمان كانوا يســـتخدمون المراوح في التهوية فيكفي فتح نافذة أو اثنتين ليغمرك الهواء الرطب القادم من البحر، أما البار العريق فموجود كما هو والكراســـي منزوعة الظهر الفخمة ذات الوســادات الضخمة لا تزال رابضة أمام البار الذي يســـتخدمونه لعمل الشاي والقهوة والنســـكافيه والمشروبات الســـاخنة والباردة الحلال، لكن لا يجلس أحد يتناول مشروبه أمام البار والكراســـي مضمومة بشدة إلى حافة البار كي تمنع الجلوس، كفتاة مراهقة تضم ســـاقيها وهي جالســـة بالمترو، كل فترة زمنية وجيزة تمر عاملة النظافة بالمساحة تمسح حولك، ثم تكمل مهمتها في الحمامات التي تبدو نظيفة جدًا، لكنك تحس أنها نظافة شـــكلية عندما تتجه إلى نفس المبولة بعد ساعتين فتجد عقب السيجارة الذي ألقاه أحدهم ما زال موجودًا، وتدخين الســـجائر والشيشـــة مسموح بـــه في المكان رغم أنه شـــبه مغلق! وجعلني ذلـــك أتفكر قليلًا في المكان الـــذي أحبه؛ لأنه ملاصق لفندق "متروبول" الذي كان فيما قبل مبنى تابعًا لوزارة الري وكان يعمل به الشـــاعر الســـكندري العالمـــي "كفافيس" الـــذي تلهمنـــي قصائـــده، وكان المحل ملكًا لليوناني "يورغوس بيرليس" مؤســـس حلواني "بوتيت تريانون".

وسُمي على اسم قصر "تريانون" مسكن الملكة الفرنسية الشهيرة "ماري أنطوانيت"، وكان موقعه في الجانب الأيمن من حديقة قصر فرساي الشهير مقر إقامة ملوك فرنسا (لويس الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر)، وقد شهد أحداث الثورة الفرنسية عام 1789، وعن جمال قصر "تريانون" الآتي: أن الملكة ماري أنطوانيت كانت مغرمة بالعطور، وقد استدعت صانع عطورها "جان فرغون" ذات يوم وكلفته بصنع عطر يلتقط روح قصر "تريانون" وطلبت بالنص عطرًا يعبر عن روح المكان أكثر من مجرد التعبير عن الأزهار وحديقة القصر! وبالفعل صنع لها جان عطرًا سحريًا زهريًا حساسًا، ويقال إنها بمجرد علمها بقيام الثورة طلبت من صانع العطر ملء زجاجة إضافية من العطر وهي تستعد للهرب مع زوجها القيصر، ويقال أيضًا إن رائحة العطر الفواحة كانت السبب في القبض على العائلة الملكية وإعدامها بعد أن شك فيها موظف الفندق، وتأكد أنها ليست سيدة عادية إنما من النبلاء الهاربين! ما علينا بصحة هذا الكلام من عدمه.. السؤال: لو دخلت ماري أنطوانيت الآن المكان المسمى باسم قصرها وباغتتها روائح التبغ والمعسل والتفاح واللبان.. مش كانت حتقول المقصلة أرحم.

زرعت فوق برغوت جنينة بلح

بمشيته المتأنية وجلبابه الأبيض النظيف وعمامته من ذات اللون، كان يلف في شوارع القاهرة والشمس في نزعها الأخير، وقد خفت حركتا البيع والشراء إلا من بعض الباعة السريحة حاملين القفف على الرأس وعليها خضر وفاكهة من أنواع شتى، لكن من المؤكد أنهم كانوا لا يحملون البطاطس أو الطماطم أو المانجو! لأنهم في ذلك الوقت لم يكونوا قد تعرفوا بعد على هذه الأصناف!.. صاحبنا هذا لم يكن بائعًا لما قد يُشترى أو مشتريًا لما قد يُباع، لذا لم تكن فوق رأسه غير عمامته، وما يعرضه على الناس كان يتدفق من فمه منغمًا وجميلًا وطريفًا ومشوقًا وغير معقول!. لم تكن المقاهي كما

هي الآن، كانت مجرد كوات في الجدران، وكانت أشبه ما تكون بمحلات البقالة الصغيرة التي في الريف والنجوع، وكانت هناك دكة خشبية تسع من خمسة إلى سبعة أشخاص موضوعة بجانب كل طرف من طرفي الباب، بخلاف دكك المقهى الداخلية، من يجلس بالخارج هم من المميزين في المنطقة.. تجار وصنايعية ورؤساء حرف وطوائف، تخرج إليهم المشروبات والشيش والنارجيلة حيث يجلسون، أما من بالداخل فأغلبهم كان من الطبقات الأقل أو الذين يحتسون مشروباتهم على عجالة، حتى يعودوا إلى عملهم بسرعة، أو من المتوارين بالداخل بسبب ما قد يكون من بينه الثأر.. موهبة صاحبنا هذا كانت نظم الشعر والتجول به في أنحاء البلاد كعادة ذلك العصر، وكانت منهم طائفة تستعين بالربابة وأخرى بالطبل أو الدف والنقرزان كإضافة موسيقية لإبداعهم.. المهم في هذه الحكاية المبكرة من تاريخنا ما كان يقوله هؤلاء الشعراء ويسمعه الناس ويستحسنوه.. وإليك نموذج من هذا القول الطريف المثير!..

(كسرت بطيخة رايت العجب في قلبها أربع مداين كبار
وفي المداين خلق مثل البقر وفي كل واحدة أربع قلاعات حصار
وفي القلاع أقوام طوال الدقون ودمعهم جاري شبيه البحار)

إلى آخره.. وكان هذا النظم المدهش من البنية الأساسية للقصيدة التي يشدو بها الشاعر، بعد المقدمة الشعرية التي تحاكي الشعراء القدامى الذين كانوا يستهلون نظم بالغزل، ثم تليها مقطوعة تسمى

دور "الهزل" التي ذكرنا منها الأبيات السابقة، وبعدها دور يطلق عليه دور "الجد" ثم ختام القصيدة، وقد انتقيت من هذه الأدوار المسماة بالهزل ما يلي:

(شفت الجمل قاعد بيعجن فطير ويخبزه ف البحر يطلع بقر
يرسم على المنسج جوامع لبن أما الموادن فقس قنبر دكر)

ومن قصيدة أخرى الآتي:

(زرعت فوق برغوت جنينة بلح بأربع سواقى لجل زرع الحمام
طلع الحمام بطيخ مطوق حجر قرن شبيه الفيل وضارب لثام)

ألا يفكرك هذا أيها القارئ الكريم بالصرعة التي اجتاحت أوروبا من بدايات القرن العشرين والتي سميت بمسرح العبث، وقد بدأت في فرنسا تحديدًا في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين (1953) على يد المسرحي الفرنسي الموطن والإيرلندي الأصل صموئيل بيكيت بمسرحية أسماها (في انتظار جودو) والتي أطلقت ظاهرة أدبية مهمة ومثيرة للجدل اسمها العبث أو اللامعقول، ومن فرنسا اجتاحت كل دول العالم حتى وصلتنا وكتب أديبنا وأستاذنا الراحل توفيق الحكيم مسرحيته الشهيرة (يا طالع الشجرة) تقليدًا لتلك الظاهرة، رغم أن عنوان المسرحية مأخوذ من إحدى قصائد تراثنا المجهولة المؤلف ومن دور الهزل بالذات "يا طالع الشجرة

هاتلي معاك بقرة.. تحلب لي وتسقينى بالمعلقة الصيني".. لكننا للأسف قوم كسالى لا نهتم بالبحث والتنقيب في تراثنا، وما زلنا حتى الآن في مدارسنا ومعاهدنا الأكاديمية ندرس ونُدرس (في انتظار جودو) على أنها التي ابتدعت الظاهرة!

إذًا ما الذي كان يقوله في شــوارع مصر المحروســة الشاعر الجوال أحمد الأعرج، الذي ســردنا بعض نظمه في المقدمة؟ قبل ظهور مســرح العبث بـ70 عامًا على الأقل.. وهذا الكلام ليس من عندياتـــي بل من واقع نصوص جمعتها بعثة فرنســية أثناء الحملة الفرنســية على مصر من الشعراء الجوالين في شوارع القاهرة في أواخر القرن التاسع عشر، وطبعت أعمالهم في باريس عام 1893.. وسأذكر نصًا من هذه النصوص للشاعر أحمد الأعرج، لكي نتعرف على مستوى التركيب واللغة والنظم وإلى ذوق المستمع المصري في أحياء القاهرة وقتها، ونرى مدى قدرة هذا الشعب العريق على اســتيعاب الفنون الأدبية، كما سجل ذلك الأستاذ عبد العزيز جمال المحقــق التاريخي المهم، في مجلة "مصرية" التي يتولى تحريرها وإصدارها.

يبــدأ الشــاعر بمقدمة غزليــة بالفصحى بالمصريــة الجميلة كالآتي:

(قلبــي تولــع بالغــرام الغريم   في ظبي خد عقلي بلحظة ومال

هواه ترك عقلي صبح في جنون   أسكر واغيب واحضر بحب الجمال)

ثم يدخل في دور "الهزل" أو ما أطلقنا عليه شعر اللامعقول..

(يوم شفت ناموسة بتغزل قصب   يطرح مراكب وسقهم "حبالهم" من عسل
ومن نزل فيهم بقصد السفر   يطلع من الفيوم لبرج الحمل
من فوق صواريهم بتجري البحار   فيها مواقع نخل تطرح بصل
وفي كل واحدة خلق مثل الجراد   في خلقة الجاموس برجلين كبار
وإن قلت دا منه يجوز الفدا   تصدق لأن القول ينافي الفعال)

بعد ذلك يدخل الشاعر في دور "الجد"

(باكر دخلت الروض بقصد النزه   لقيت الطيور في فرح بين الغصون
جاهم أوان الربيع غردوا   باعلا الشجر تلحين غريب الفنون.
باتت ثياب الياسمين في سحر   أقبل بشير الورد زايد شجون)

ثم يختم قصيدته بدور يسمى دور "الاستشهاد" وفيه يقدم نفسه إلى المستمعين ويحاول أن ينول رضاء الشعراء المحترفين، ليكون من زمرتهم أو أحد أتباعهم، ودور "الاستشهاد" هو:

(أنا الفقير أحمد عريق النسب   عاجز عن الطاعة كثير الذنوب
هل تقبلوني عبد يا أهل الأدب   تابع لكم مداح حبيب القلوب)

هذا هو بعض تاريخنا المجهول والمسلوب، والمؤسف أننا حتى عندما حاولنا استحضاره من أجل الاستشهاد به والتدليل على عراقتنا، استعنا في سبيل ذلك بما سجله الأغيار من تاريخنا، من

خلال ما دونته البعثة الفرنســية إبان احتلالهم لنا، بينما انتشر أدب أمريكا الجنوبيــة في العالم كله، وتعرفنا منه على أدباء عظام مثل ماركيز ويوســا وجورجى أمادو وإيزابيل الليندي وغيرهم، وهذا بسبب أنهم عكفوا على تراثهم وأخرجوا كنوزه ووضعوه بين ثنايا كتابتهم، فلفت أنظار العالم وخلب لبه، والعجيب والمحزن في الأمر أن تراثهم الذي نهلوا منه جاء معظمه عبر الهجرات العربية الأولى (من الشــوام خاصة) إلى بلاد أمريــكا الجنوبية، وقد حمل هؤلاء المهاجرون الأول التراث العربي وأساطيره معهم، وهذا ظهر جليًا في أغلب إبداعات أمريكا الجنوبية التي سميت بالواقعية السحرية، والتي منبعها الأصيل كتاب (ألــف ليلة وليلة) وباقي كتب التراث العربية، ومن يريد التحقق من كلامي هذا عليه إعادة قراءة ماركيز ويوســا وجورجى أمادو وصولًا إلى باولــو كويلهو الذي لا يكف عــن النهل من تراثنــا حتى الآن!. فلماذا نقصر فــي قراءة تراثنا والاســتفادة من مخزونه؟ هل لأن زامــر الحي لا يطرب كما قال الشاعر العربي قديمًا؟

وقائع خروج أسرة يهودية من مصر

(في ليلة عيد الفصح، يجب ترك كأس من النبيذ فوق الطاولة خصيصًا للنبي إيليا، وليس مسموحًا لأي شخص أن يشرب من هذه الكأس أو حتى لمسها، حتى إذا قرر إيليا أن يتوقف للزيارة فسوف يجد مكانًا مخصصًا له على المائدة. كانت الكأس رمزًا من عشرات الرموز التوراتية الكثيرة التي يزخر بها هذا العيد إحياء لذكرى الخروج من مصر، بدءًا من حمل حاجياتنا على أكتافنا وأكل خبز غير مختمر، كرمز لخروج اليهود على عجل عند هروبهم من

مصر، كما يتضمن الاحتفال أن نقوم بتمثيل كل كارثة من الكوارث العشـــر التي حلت بمصر- الماء ينقلب دمــــا، الضفادع، البعوض، الذباب، موت المواشي، القروح، البرد، الجراد، الظلام، موت كل بكر- انتهــاءً بتمثيل عبور البحر الأحمر للوصول لأرض الميعاد. لم يكن هناك في واقع الحال أي شــــيء مجازي لهذا العيد بالنســـبة لعائلتي، فهي قاســـت بالفعل من فرعون العصر الحديث - ناصر - فكان خروجنا من مصر متعجلًا ومشحونًا بالخوف والرعب).

الفقرة أعلاه من كتاب (الرجل ذو البدلة البيضاء الشركسكين) الصادر بالإنجليزية عام 2008 للمؤلفة اليهودية "لوسيت لنيادو"، وهي من عائلة يهودية مصرية من أصول شامية، وقد تركت مصر مع عائلتها وهي طفلة، وتقول في مقدمة الطبعة العربية التي صدرت عام 2010 عن دار الطناني للنشر (إن التسامح الفريد لمدينة القاهرة العالمية هو ما أسر لبها وجعلها مهتمة باستحضار صورة لها في كتابها).. وفي الحقيقة، الكتاب في غالبه يشي بذلك، وهذا مهم جدًا لتفنيد الأكاذيب التي يروج لها البعض من أننا اضطهدنا اليهود بعد حرب 1948، ثم العدوان الثلاثي، ومن المهم الاطلاع عليه، ومن جهتي سأرد على بعض مغلوطاته من واقع النص نفسه.

نبدأ بالرموز التي يتداولونها في شـــتي بقـــاع العالم في ذكرى خروجهـــم من مصر وهم يدّعون أن شـــعب مصــــر بعد هروبهم

هاجمته الحشــرات والقروح والبرد وخيم عليه الظلام ثم ماتت كل بكر من نســانه، أولا النزاع كان بينكم وبين الفرعون وكهنته، وما ذنب الشــعب المسكين الذي سلبتوا ذهبه وفضته وحلله النحاس في أغرب عملية نصب جماعي في التاريخ؟ وحالة العجلة التي خرجتم بها، لأن الحرامى بشــيلته، كما يقول المثــل، وقد فررتم بالغنائم، وبخصــوص أنكــم هربتم من فرعــون العصــر الحديث ناصر! مشــحونين بالخوف والرعب.. كيف نصــدق ذلك؟ فقد رحلتم بعد ثــورة يوليو 1952 بـ 11 عامًا أي عام 1963! وبعد 9 ســنوات من تولي جمال عبد الناصر حكم مصر، فهل تحتمل أســرة 9 سنوات من الرعب! واثبت بعض الافتراءات على مصر ومن واقع كلامك: (في خضم الحرب العالمية الثانيــة، ظل اللاجئون اليهود يتدفقون علــى مصر من كل مــكان، لأنها كانت الدولــة الوحيدة التي ظل يهودها يعيشــون في أمان وســلام ولم يتعرضوا لأي ضرر كما حــدث لليهود في بقية أنحاء العالــم).. وكذلك لم يتعرض لكم أحد أثناء حرب 1948 بين العرب وإسرائيل، وفي يوم 26 يناير من عام 1952 الذي احترقت فيه القاهرة، وعُرف هذا اليوم بالسبت الأسود أو يــوم الأربعمائة حريق إذ اشــتعلت النيران فــي أربعمائة بناية متفرقة، ورد على لســانك الآتي: (لعدة أيام لاحقة، اختبأ اليهود في بيوتهم، لا يجرؤون على الخروج إلى الطرقات، خاصة في وســط المدينة، يقينًا لم يكن اليهود هم المســتهدفون مما حدث من أعمال

عنف، وإنما كان الأجانب وبخاصة الإنجليز هم المستهدفون، ومع ذلك شعر المجتمع اليهودي بأنه معرض لهجوم شديد، وكان يخشى الأسـوأ فكانوا يتسـاءلون هل يعدون هم أيضًا فـي عين جيرانهم العـرب من الغرباء؟) وفي إبان العـدوان الثلاثي على مصر التي شاركت فيه إسـرائيل، لم يتعرض أحد لكم كيهود، والدليل (بدأت مدرسة الليسيه فرنسيه بباب اللوق سلسلة من التدريبات العسكرية الخاصة لطالباتها لتلقنهن القتال ضد الغربيين واليهود الغزاة. كانت أختي وزميلاتها يتسـلمن بنادق قديمة ويتعلمن كيفية تحديد الهدف وإصابته) كيف تمرن المدرسـة يهوديـة على قتال اليهود؟ إنما تم تدريبها لأننا كنـا نفصل بين اليهودية كديانة وإسـرائيل كمعتدي ومغتصب للأرض. ومن يريد التعرف أكثر على حياة أسرة يهودية عاشت وترعرت في مصر يقتني هذا الكتاب.

١

المدن الغارقة

كان للشاعر السكندري الإيطالي "أونجاريتي" في الإسكندرية أصدقاء فرنسيون، وقد دعوه مرة إلى رحلة بحرية لمشاهدة ظاهرة اكتشفها والدهم بحكم عمله في منطقة الآثار الغارقة، وهي ظاهرة تحدث بشكل نادر، عندما تصفو مياه البحر، إذ تظهر في الأعماق ملامح الميناء القديم، المدينة التي كانت هناك قبل أن يجيء الإسكندر الأكبر، وقد شاهد أونجاريتي بعينيه ذلك الميناء القديم المغمور، وسجل ذلك كتابة، وحفرت خبرة ذلك الظهور المحير أخدودًا عميقًا في ذاكرته: ميناء مغمور، عالم خفي مدفون بأكمله، ولكن مشاهده تطفو أحيانًا وتتكشف على نحو مكتمل في حضورها

وتصبح في ذات الوقــت قريبة جدًا وبعيدة، إنها تجربة مكتملة، لم يعطها التاريخ اســمًا - مكان قائم في النســيان - ولكنه هناك ولن يموت أبدًا، ســتعاود تجاربه المنســية الطفو معلنة عن حضورها اللحظي ثم تنسحب مجددًا إلى مكمنها الأبدي. وستظل تلك التجربة المثيرة بمثابة الحدس الكبير الذي حكم ديوان الشــاعر أونجاريتي الأول "الميناء المدفون" والذي اشــتهر به عالميًا، وهو حدس ظل يهيمن على مجمل تجربته الشعرية بعد ذلك.

وقد ولد أونجاريتي في الإسكندرية عام 1888 وفقد والده عندما كان طفلًا عمره عامين، وترك لهم الوالد مخبزًا بسيطًا في الإسكندرية ظلت والدته تديره بعد وفــاة الأب وتوفر له ولأخيه الأكبر رعاية كاملة من عائده، وفي عام 1897 بدأ رحلة الدراســة بالإســكندرية عندما التحق بمعهد دون بوسكو "Don Bosco" وكان تابعًا للإرسالية الإيطالية، ويقوم بإعــداد أبناء الجالية الإيطاليــة وتأهيلهم للتعليم العالي، وكان هــذا المعهد مفتوحًا للمصريين أيضًا، وقد درس فيه أيضًا قبل أونجاريتي الشاعر الإيطالي الكبير مارينيتي الذي أسس بعد ذلك في ميلانو وباريس تيار المســتقبلية وهو التيار الذي ترك بصمة كبيرة على الفن والشــعر الأوروبــي، كما أصدر مارينيتي كتابًا رائعًا بالإيطالية اســمه "سحر مصر" وللأسف لم يترجم إلى اللغة العربية حتى الآن!.. وللعلم أيضًا كان أونجاريتي من التلاميذ المعاصرين للشاعر المصري اليوناني الكبير "قسطنطين كفافيس"..

وقد شـــارك أونجاريتي وهو في مصر "1908" في مغامرة ثورية كبيرة لتحرير بحارة المدرعة الروســية الشهيرة " بتومكين" التي خلدها المخرج الســينمائي الروسي "ايزنشــتين" في فيلمه الشهير "المدرعة بتومكين" وكانت هذه المدرعة متوجهة من روســيا إلى مدينة ميســينا بجزيرة صقلية، التــي كان زلزالا مدمرًا قد ضربها بشــدة، وكانت المدرعة تحمل معونــات لضحايا الزلازل، وقامت ثورة على المدرعة لسوء المعاملة واضطهاد الضباط للبحارة، وفي رحلة العودة توقفت المدرعة في الإســكندرية، وطلبت الســلطات القيصرية من الحكومة المصرية، تسليم البحارة المتمردين للسلطات الروسية بمصر لمحاكمتهم في روسيا، ووافقت الحكومة المصرية على طلب القيصر، لكن مجموعة من المثقفين الذين يعيشــون في الإسكندرية ومن بينهم الشاعر أونجاريتي اعترضوا القطار وحرروا البحارة، ثم قبض على أونجاريتي بتهمة الهجوم والتعرض للقطار وتهريب المتهمين، وزعزعة علاقات مصر بإيطاليا، ولكن محاكم الامتيازات الأجنبية التي كانت سائدة آنذاك، سمحت بمحاكمته داخل القنصلية الإيطالية وأمام قضاة إيطاليين ومن ثم إيقاف الحكم عليه، وفي عام 1912 غادر أونجاريتي مصر لمتابعة دراســته في فرنسا وكان عمره آنذاك أربعة وعشــرين عامًا، ثم غادر باريس واستقر فترة في ايطاليا وبعدها انتقل مع أسرته إلى البرازيل وكانت حياته ترحالًا متواصلًا، لكن رغم تنقله الدائم، بقت خبرات الحياة الأولى

على الأرض المصرية مثيرًا كبيرًا له، وظلت الصحراء بسرابها وقدرتها على المحو مرجعًا دائمًا له، وذكر في مقابلاته وحواراته أثر الشعر العربي في تكوينه الإبداعي، كما ظهرت في قصائده الإيطالية عبارات عامية مصرية مثل "تعاليلي يا بطة" بالإضافة إلى كتاباته عن مصر وعن الحياة القصيرة والمأساوية لصديقه المصري الشاعر محمد شهاب الذي رافقه في رحلة السفر إلى فرنسا، وقد عاد اونجاريتي إلى مصر وهو كبيرًا وشهيرًا وعالميًا، وكتب عنها كتابًا مهمًا سماه "الدفتر المصري" لم يترجم من اللغة الإيطالية إلى اللغة العربية حتى هذه اللحظة.

أونجاريتي وكفافيس وداريل ومارينيتي وغيرهم من الكتاب العالميين الكبار الذين ووضعوا بصماتهم في تاريخ الإبداع العالمي، عاشوا في مصر وعاشت فيهم، لكننا أهملناهم عمدًا أو تقصيرًا تحت دعوى أنهم غير مصريين الأصل، بينما هم كانوا يعتزون بمصريتهم أكثر حتى من مصريين يعيشون بيننا الآن وقلوبهم ليست معنا.

وما بالنا حتى لم نهتم بالبحث والتقصي عن الشاعر المصري محمد شهاب الذي تعرض لمأساة في الغربة، وخلد ذكراه أونجاريتي في كتاباته وقصائده.. وهو شاعر مصري سافر مع أونجاريتي إلى باريس، وكان مثقفًا كبيرًا، وصاحب فلسفة ومقربًا

من الشاعر الفرنسي الشهير "بودلير" وفي صيف عام 1913 بعد وصولهما إلى باريس بعام، عاد أونجاريتي في إحدى الليالي إلى الفندق فوجد الشاب محمد شهاب وقد شنق نفسه في الغرفة، وظل مذهولاً ومأخوذاً حول جثته حتى الصباح ثم شيعه هو وصاحبة الفندق إلى المقبرة، دون مشيعين آخرين، وقد كتب عنه أونجاريتي قصيدة شهيرة ذكر فيها اسم الشارع ورقم الفندق الذي اقتسما فيه نفس الغرفة، لكن غير ذلك لم يعد لدينا أي أثر لذلك المثقف المصري الذي رحل بإرادته عن عالمنا وهو في العشرين من عمره، ولا أثر لكتاباته ولا محاوراته، اختفى نهائيًا من التاريخ، وحتى عندما حاول الفنان التشكيلي الكبير عادل السيوي الذي ترجم الأعمال الكاملة لأونجاريتي عن اللغة الإيطالية، والذي بفضل هذه الترجمة الرائعة استطعت عرض حياة وشذرات من سيرة أونجاريتي في هذا المقال.. عندما حاول عادل السيوي البحث عن أي أثر للشاعر المصري محمد شهاب، اكتشف أن الفندق قد اختفى تمامًا واختفت معه ذاكرته ولم يعد هناك في رقم 5 من يتذكر هذا الفندق المتواضع.. وتلاشت أخباره حتى من بقايا ذاكرة العجائز.. وبقت لنا هذه القصيدة المؤلمة التي كتبها أونجاريتي عنه وسماها "ذكرى".. والتي يقول في نهايتها "يرقد محمد الآن.. في مقابر ايفري.. تلك الضاحية التي تبدو دائمًا.. كسوق فضت لتوها، وربما كنت الوحيد الذي ما زال يعرف أنه كان حيًا".

مثلما أحــس أونجاريتي بأن المدن الغارقـــة التي تطفو أحيانًا، مثل الذاكرة التي تنشــط فجأة، والتي تجعلنا نجاهد كي نســتعيد ما فقدنـــاه من التاريخ.. أتمنى أن يهتم أحد بالبحث والتنقيب عن مدننا الغارقة.. عن مبدعينا المجاهيل أمثال محمد شـــهاب.. لكي نثري وجداننا الإبداعي.

ربيع زائف

يبدأ الأمر فجأة وقد لا تنتبه إليه إلا متأخرًا بشيء عارض جدًا، ربما لا يلفت نظرك للوهلة الأولى، مثل ظهور بعض الشعيرات البيض تتخلل شعر راسك، أو تجاعيد دقيقة في أطراف العينين وربما هالات سوداء تحددها، وظهور هذه الهالات يوتر الأنثى أكثر من الذكر، ثم لا تكاد تلاحق الزمن الذي يجرفك معه وقد وهنت قدراتك على المقاومة، وهنا تبدأ رحلة التحايل بإضفاء بعض مظاهر الشباب التي تولي بلا رجعة، سواء باستخدام الأصباغ والكريمات والحقن بالفيتامينات والهرمونات أو بالبقاء داخل خيمة من الأوكسجين النقي أو الأوزون لفترات محددة، وقد تغالي بعض

النساء اللواتي كنا مهووسات بجمالهن فيحقن أجسادهن ووجوههن بالبوتكس ومواد أخرى لا تتوقف العقول الطبية عن اختراعها إما لإعادة شبابهن أو لإضفاء جمال وفتنة إليهن، وفي الحقيقة لقد نجح خبراء الصحة والجمال في ذلك إلى حد ما، وقد كنت منذ سنوات في بيروت وأدهشني كم الفاتنات اللواتي كنا يعبرن الشوارع على أقدامهن أو وهن داخل السيارات، الوجوه اللامعة والخدود النضرة المتوردة والشفاه المكتنزة مع الصدور النافرة والأجساد السمهرية والخصر المحكم الدقيق.. إلخ، لكن كلهن متشابهات إلى حد التطابق كأنهن "عروسة المولد" تلك العرائس المصنوعة من الحلوى والتي كانت تباع فيما مضى في المولد النبوي الشريف، يبدون كأنهن خارجات من مصنع وقالب واحد.

في اعتقادي أن الشعور بالكبر والعجز شيء طبيعي جدًا، والتعامل معه ببعض التحسينات في الشكل والصحة مفيد جدًا، لأن هذا الشعور لو تملك من الإنسان لقضى عليه، فعند شعورك بأنك قد هرمت وكبرت إلى درجة أنك لن تقدم جديدًا، أنت تعطي لروحك إذنًا بالانكسار وتبث فيها رغبة بالرحيل، وقد لاحظت ذلك على أناس كثيرين كانوا يعملون ببهجة وهمة ونشاط طيلة حياتهم الوظيفية وكانوا في تمام الصحة والعافية، يكادوا لا يشكون من أي متاعب صحية، وبمجرد تقاعدهم رحلوا بعد فترة قصيرة لخلو حياتهم من أي معنى للكفاح، أنا أعرف طبعًا أن قدر الإنسان

قـــد كتبه اللـه عز وجل من قبل مولـــده، وأن لا أحدًا يموت ناقص عمر كما يقـــول المثل الدارج، إنما قصدت بملاحظتي تلك أن أنبه إلى قيمة العمل والهدف الذي نســـعى إليه، وأحذر من صنع "ربيع زائف" بالمبالغة في التجميل ومحاولة إعادة الشـــباب لأن ما فات قد مات، المطلوب فقط هو الاعتدال وعدم إجهاد الجسد والعقل في أعمال كنا نقوم بها في عز الشـــباب وفتوته، ومنح الذهن قدرا أكبر من التأمل والجســـد فترات أكبر من الراحة، وأن نطارد دومًا هدفًا نســـعى إليه، وأن نهتم أيضًا بمحاولة إصلاح ما أفســـده الدهر بلا مبالغة، وهذا مهم جدًا كما ذكرت ســـابقًا لأن الرغبة الدافعة لإعادة الشباب مفيدة نفسيًا ومعنويًا وتحول بين التردي السريع.

ويحضرني بمناســـبة هذا الموضوع الأغنية الجميلة للأســـتاذ عبدالباسط حمودة وللمؤلف أيمن الطائر، لأنها رغم عاميتها الشديدة تمس هذا الموقف بشدة..

(أنا مش عارفني أنا كنت مين أنا مش أنا
لا دي ملامحي ولا شكلي شكلي ولا ده أنا
بابص لروحي فجاه
لقيتني كبرت فجاة
تعبت من المفاجأة ونزلت دمعتي
قوليلي إيه يا مرايتي.. قوليلي إيه حكايتي
تكونش دي نهايتي وآخر قصتي)

كذلك أعجبني جدًا ما كتبه المخرج الإيطالي فريديكو فيلليني(*) وهو يرثي عجزه في مذكراته المعنونة (أنا فيلليني):

(كنت أتظاهر بالمرض وأنا صغير للحصول على عناية زائدة. وتمارضت وأنا شاب للنجاة من جيش موسوليني. وفي منتصف العمر كنت أستعمل الوعكة تحاشيًا للتكريمات والمهرجانات التي لم أجد شيئًا آخر أعتذر به عنها، وأخيرًا أصبح العجز في الشيخوخة واقعًا، وسأفعل الآن أي شيء حتى لا يعلم الناس بالحقيقة، لأن ضعفي يشعرني بالخجل والارتباك).

قد عرف واشـتهر فيلليني كأحد العظماء في تاريخ السـينما الإيطاليـة، بجانـب "لوكينو فيسـكونتي" و"فيتوريو دي سـيكا" و"روبيتر روسيليني"

من أشـهر أفلامه (ثمانية ونصف، وحيـاة حلوة، روما روما، مدينة النسـاء، وكازنوافا فيلليني) ومشـواره السينمائي شهد اثنى عشر ترشيحًا لجائزة الأوسكار، كما فازت أربعة من أفلامه بجائزة أوسكار أفضل فيلم أجنبي هي: "الطريق" و"ليالي كابريا" و"ثمانية ونصف" و"أماركورد".

(*) المخرج الإيطالي فريديكو فيلليني الذي تحول إلى أسطورة في حياته، وكان أشهر من الأفلام الذي صنعت شهرته واشتقت من اسمه صفة "فيلليني" ..FELLINIESQUE

سوء الطالع الذي لاحق الباذنجان

أدخل المطبخ فقط لتسخين الأكل وعمل السلطة وأحيانًا البيض بالبسطرمة، ومفعم بجهل فادح في شؤون المطابخ والطهى، ولا أهتم بالبرامج التي يقدمها "شيفات" صوتهم منفر وهيئتهم كمصارعي السومو، لكنني عندما لمحت كتاب "مطبخ زرياب" اقتنيته على الفور وقرأته فوجدته من أجمل ما قرأت في حياتي في السنوات الأخيرة، و(زرياب) هو أبوالحسن على بن نافع، الذي اشتهر بعذوبة صوته وحلاوة شمائله وعلمه الواسع بالأدب والجغرافيا وعلم الفلك، ولقب بزرياب، وهو على اسم طائر أسود اللون عذب الصوت، بسبب دُكنة بشرته، وكان أميز تلاميذ إسحق

الموصلي، أشهر موسيقي ومغنّ في بلاط العبّاسيين. واضطرّ زرياب إلى مغادرة بغداد في الثلاثين من عمره، هربًا من نقمة أستاذه الموصلي الذي غاظه إعجاب الخليفة هارون الرشيد به. ورحل زرياب تجاه الغرب حتى استقر بقرطبة، حيث سحر أميرها والأندلس بأسرها بفضل طباعه الدمثة وعبقريته الموسيقية ومعارفه الموسوعية التي منها أنه كان يحفظ عن ظهر قلب كلمات عشرة آلاف أغنية وألحانها. وهناك تجلت عبقريته في الموسيقى فهو من اخترع العود ذا الأوتار الخمسة، وأول من فتح في قرطبة وأوروبا معهدًا للتجميل، حيث كان يعلم الناس فن التبرج وإزالة الشعر واستعمال معجون الأسنان وطريقة قص الشعر وتسريحه، كما علم أهالي قرطبة إعداد المآكل البغدادية وترتيب أطباق الوجبة، بوجوب البدء بالحساء ثم أطباق اللحوم ثم الأطباق المحلاة.. وقد استعار الكاتب السوري (فاروق مردم بك) اسم زرياب وهو يكتب مقالاته بالفرنسية عن فن الطبخ، التي نشرها في مجلة تصدر باللغة الفرنسية عن معهد العالم العربي ثم جمعها وأصدرها في كتاب، وقد ترجمه عن الفرنسية د. جان ماجد جبور، ونشرته بالعربية دار (كلمة)، والكتاب يقدم أربعة عشر صنفًا من الفواكه والخضروات، جامعًا بين الوصفات والأقوال التي تجمع الجد والهزل، وكل صنف منها يستحق مقالًا، وسأورد هنا بعض ما قاله عن الباذنجان لعله يكشف جمال هذا الكتاب. (كثيرًا ما أهان عظماءُ هذا العالم الباذنجان

بسخريتهم اللاذعة). ويبدو لي أنّ السبب الأول في تحاملهم عليه هو شعورهم الطبقي، لأن هذه الثمرة السوداء لطالما كان لها شعبية بين الفقراء. ولا أدلّ على ذلك من هذه النادرة التي وردت في كثير من كتب الأدب العربي: سمع احد المتأدبين رجلًا من العامة يمتدح الباذنجان، خاصةً إذا كان محشوًا باللحم، فرد عليه أنه لن يأكل منه ولو كان حشوه رحمة ومغفرة! وينبغي ألا نغفل تأثير بعض الأطباء. فالرازي في كتاب "منافع الأغذية ودفع مضارها" يزعم أن الباذنجان رديء للعين والراس ويولد دمًا أسود والإكثار منه يسبب التهاب العينين والبواسير. أما علماء الصف الثاني فقد اتهموا الباذنجان بالتسبب بالجنون. وهكذا أصبح الباذنجان في نظر أدعياء العلم أكثر الثمار ضررًا، وبعضهم ذهب إلى القول إن أصل كلمة باذنجان "باض الجان". وقد رافقت هذه السمعة السيئة الباذنجان في رحلته إلى أوروبا فمُنع من إنجلترا في القرن السادس عشر. وفي تركيا تحمل الباذنجان مسؤولية الحرائق الخمسمائة التي شبت في إسطنبول في العصر العثماني، والسبب أن جميع سكان المدينة في فصل الباذنجان كانوا يشعلون النار أمام منازلهم لشيّه دون اكتراث للريح التي اجتاحت المدينة. هذا هو سوء الطالع الذي لاحق الباذنجان قديمًا.

مالك ومالك الفول يا ابن رشد؟!

أكتب لكم وأنا بحرم عربة الفول التي اعتدت التردد عليها مؤخرًا بمنطقة وسط البلد، وأنا أحب الفول جدًا كما تحبونه لأنه لذيذ وشهي وعماد البطن، ولو تقمصت دور أحد منظّري هذه الأيام سأقول إنه نبات ديمقراطي يجمع بين طبقات الشعب، فها أنا ملتصق بجوانب عربة الفول وسيارة فاخرة وقفت خلفي فجأة في نهر الطريق تبتسم السائقة من داخلها، فيهرع لها صاحب العربة بساندويتشاتها سابقة التحضير، وبخلاف أن الفول يعتبر مصدرًا بديلًا للبروتين منذ أيام الفراعنة، "وصامد" معنا حتى الآن وأعتقد أنه سيبقى بعدنا! وهو في مصر والسودان يعتبر الوجبة الرئيسية، لكن في السودان

أنزلوه درجة عندما أطلقوا عليه لقب "حبيب الشعب".. لكن يا هلترى ماذا تقول الأدبيات في الفول؟ إليك بعضها (الفول عالمي من حيث أصوله وتاريخه، وهو يختزن من الأسرار أكثر مما يزخر به من البروتينات والأملاح المعدنية، وكهنة مصر- وطن الفول- كانوا يسمون المكان الذي تقبع فيه أرواح الموتى بانتظار تناسخها من جديد "حقل الفول". وهو اعتقاد شاطرهم إياه فيما بعد أورفيوس وفيثاغورث في اليونان القديمة، حتى إنهما حظرا على تلاميذهما أكل الفول. ويروى أن فيثاغورث، عندما كان ملاحقًا من أعدائه، فضل أن يستسلم وأن يُقتل على أن يجتاز حقل فول فيعطل دورة التناسخ. وكان الفول يرمز في نظر القدماء إلى الجنين. لذا كان- قبيل طقوس الربيع- وفي احتفالات الزفاف، يقدم قربانا لقوي الغيب، وتمثل كل حبة فول الطفل الذكر الذي تؤمل ولادته. وليس للفول قيمة رمزية مماثلة في الأدب العربي القديم، وفي القرن الثاني للهجرة، ذهب ابن قتيبة، مستشهدًا بأحد أطباء العصور القديمة، إلى أن أكل الفول يضعف النظر ويتسبب بأحلام شديدة الغموض والاضطراب ليس بمقدور أحد تفسيرها. وقال عنه الأندلسي ابن عبد ربه في كتابه (العقد الفريد) إنه من الأطعمة الغليظة، وفي القرن السادس الهجري قال الفيلسوف ابن رشد إن من خواص الفول "الإضرار بالفكر وطمس الفهم" وإذا رجعنا الآن إلى ما وصلنا من كتب الطبيخ، تبين لنا أن الفول لم يلهم الطباخين

في عصر الحضارة العربية الإسلامية الذهبي).. هذه الفقرة من كتاب (مطبخ زرياب) للكاتب فاروق مردم بك والناشر دار كلمة كما أسلفنا.. وقد أفادني بمعرفة المتسبب في اتهام الفول بأنه من حبوب الغباء، وهي تهمة باطلة لأنه من حبوب الحياة لكنهم لا يعرفونه مثلنا.. منك لله أيها الفيلسوف العظيم (ابن رشد) اتهمت الفول بتهمة فظيعة هو منها براء!.. وكلمة في أذن المسؤولين، نحن نحب الفول واللحمة إلى حد سواء.. وما حدش يلعب في المنطقة دى.. وقد حذركم الشاعر أحمد فؤاد نجم فيما مضى وسأذكركم ببعض أبياته لعلكم تنتبهون: عن موضوع الفول واللحمة صرح مصدر قال مسؤول.. إن الطب اتقدم جدًا والدكتور محسن بيقول.. إن اللحمة دي سم أكيد بتزود أوجاع المعدة وتعوّد على طولة الإيد.. وتنيم بني آدم وتفرقع منه المواعيد.. واللي بياكلوا اللحمة عمومًا حيخشوا جهنم تأبيد.. يا دكتور محسن يا مزلقط يا مصدر غير مسؤول.. حيث انتوا عقول العالم والعالم محتاج لعقول.. ما رأى جنابك وجنابهم في واحد مجنون بيقول.. إحنا سيبونا نموت باللحمة وانتوا تعيشوا وتاكلوا الفول.. إيه رأيك يا كابتن محسن مش بالذمة كلام معقول.

الببغاء الذي نعى نفسه

تـــرك لنا العقل الجمعي منذ أزمنة بعيدة تراثًا كبيرًا من الأمثال والمواعظ والحكم والمقولات، والذي لو تأملنا بدقة أغلبه، وحللناه بروية وطبقناه علـــى أحوالنا، لوجدناه صحيحًا وســـديدًا وموجزًا وحكيمًـــا، بينما بعضه قد نجده غثًا وفاســـدًا وســـر بقائه يعود إلى غرابته أو طرافته أو بلاغته اللفظية التي قاومت إزاحته من حركة التاريخ، هناك في رأيي بعـــض الأمثلة الدالة على ذلك مثل المثل الدارج "امشي سنة ولا تعدي قنا" وأعتقد أنه سرى في زمن كانت فيه الجســـور والقنوات مصدرًا من مصـــادر الخطورة لأنها غير محكمة الصنع، والعبـــور من فوقها يعد مخاطرة كبيرة قد تفقد بها

حياتك أو تضيع فيها حمولتك من إثر انهيارها المتوقع، أكره أيضًا الحكمة المصطنعة التي تأمرك بأن "لا تكون لينًا فتعسر ولا صلبًا فتكسر" والتي أرى أنها ترسخ للاستكانة والمهادنة، بينما مقولة مثل "ماتعملش زي اللي رقصوا على السلالم.. لا اللي فوق شافوهم ولا اللي تحت عرفوهم" أراها مقولة سديدة تدين بعمق المواقف المائعة والباهتة والزئبقية وتدعو إلى أن يتخذ المرء مواقفه ســواء سلبًا أو ايجابًا بكل الدقة والوضوح حتى لا يصبح غير مرئي أو تأثيره في مجريــات الأمور يضحي صفرًا كبيرًا، وهناك أيضًا مقولة مأثورة أرى أنها عبقريــة وهي "اللي بيزمر ما بيخبيش دقنه".. أعلن عن رأيــك دون مواربة وبغير أن تختبئ أو تتســتر خلف أحد وتقوله، فالزمار بحكم وظيفته سيكون تركيز مشاهديه على تلك المنطقة التي يتدفــق منها النغم، فإذا ما كان هناك عيب في ذقنه - التي ســتدور حتمًا يمينًا ويســارًا مع نغماته- فسيرى كل من يستمع إليه ويشاهده هذا العيب الذي لن يستطيع الزمار إخفاءه بيديه المشغولتين بثقوب المزمار.

ومن الأفكار الخاطئة والتفسيرات غير السليمة تفسير مشية الغراب الغريبة التي تشبه القفزات، بأن الغراب في سالف العصر والأوان أعجبته مشية الطاووس فأراد أن يقلده وفشل، وعندما أراد العودة إلى مشيته الأصلية فشل في استعادتها لأنه نساها فظل على هذا الحال من التخبط، الغراب الذي ظلم سابقًا باعتباره "نذير شؤم"

وإلى وقتنا هذا يتطير منه غالبية الناس وينزعجون من صيحته الحادة ويبسملوا ويحوقلوا، وكل ذلك بسبب أن الإنسان استلهم أو استعار منه فكرة دفن الموتى، كما فعل قابيل بعد أن قتل هابيل وتحير في كيفية التصرف في الجثة، ثم شاهد الغراب يدفن رفيقته ففعل مثله، كما ورد في القرآن الكريم والكتب السماوية الأخرى، ظلمنا الغراب يا سادة وهو من أكثر الطيور حكمة وعمرًا، فهو يعيش من مائة عام إلى مائة وخمسين عامًا أي أكثر من ضعف عمر الإنسان، وهذا العمر المديد سمح له بالتأمل والتفكير والتدبر والتحايل ونقل الخبرات إلى سلالته، وإذا ما قرأت عن الغراب ستدهش جدًّا من بعض سلوكياته، فهو يعيش مع وليفة واحدة طوال حياته، وإن ماتت لا يرتبط بأخرى بعدها، وكذلك هي، وإن حدث أن تمرد غراب وحاول التحرش بأنثى لا تخصه، تعقد له محاكمة في الحال وتلتف حوله مجموعة من أكبر الغربان سنًا، يصحون حوله في البداية وعندما يثبت عليه الاتهام ينقرونه في رأسه وجسده حتى الموت، أو يستطيع الإفلات منهم وينفي نفسه خارج مناطق سيطرتهم، ولو كنت تقود سيارة في أحد الطرق واصطدمت سيارتك أو سيارة مجاورة بغراب وهو يطير على ارتفاع منخفض، فستلاحظ في غضون ثوان قليلة تجمع أسراب الغربان فوق جثة الغراب الصريع، ثم سيهبطون في سرعة شديدة يكادون يهاجمون أرتال السيارات حتى تتوقف، وعندما تتوقف

حركة السير سيهبطون ويكونون دائرة حوله، وبعضهم سيتقدم لحمله بمنقاره ثم يطيرون به ويضعونه بوقار في أقرب حديقة تقابلهم، هذا يا سادة حال الغراب الذي نتهمه بالنسيان!

على الجانب الآخر يعجب الناس بالببغاء ويتيمون بألوان ريشه وبقدرته على التقليد، سأذكر هنا حكاية عنه، ستوضح لنا الفرق بينه وبين الغراب، الحكاية حكاها لي صديقي الفنان التشكيلي الكبير عادل السيوي وهي عن صديق له أهدى إليه من أحد معارفه القادمين من وسط أفريقيا ببغاء، كان هذا الببغاء جميلًا وفاتنًا وفذا في التقليد، لدرجة أنه أحيانًا كان يقلد خرير المياه المتساقطة من صنبور الحوض، وينادي بأسماء أطفال البيت، ويردد صيحات التشجيع التي كانوا يطلقونها وهم يشاهدون مباريات فريقهم المفضل، وفي غضون فترة قليلة جدًا صار هذا الببغاء مصدرًا للبهجة، وكان يكافأ على ذلك باللب والتفاح الأخضر وحبات الفراولة، ثم حدثت حالة وفاة لأحد أفراد البيت، تشبع خلالها الببغاء بالصويت والبكاء والعديد، وعندما انتهت فترة الحداد رجع كل شيء إلى حاله، فتح التليفزيون وانطلقت الأغاني ولعب الصغار وعادت البهجة، أما الببغاء فاستمر على حاله يصوت ويعيط ويعدد حتى زهق منه أهل البيت وأهدوه إلى بعض أقاربهم الذين كانوا يلحون عليهم في السابق بجلب ببغاء آخر لهم، لم يتحمله الأقارب أكثر من يومين، ولم يتحمله الجار الذي ظن أنه سيستطيع إعادته إلى سابق عهده

وارجعه إليهم بعد أسبوع، وهنا قرر صاحبنا قتله وأشار له أحد أصدقائه بأن يطعمه بقدونس لأن البقدونس به مادة تقتل الببغاوات (لا أعلم صحة هذه المعلومة أو خطأها.. ومن يعلم يبلغنا).. وفعلاً قتل الببغاء في ذات اليوم الذي أصبحت فيه وجبته الأساسية والكلية هي البقدونس.. قتل لأنه لم يكن يملك ذاكرة.. لو كان يملكها لتذكر كيف كان يبهج الكبار والأطفال بغنائه ونداءاته وتصفيره التي كان ينال بسببها كل ما يحب.. قتل الببغاء لأنه لم يتذكر إلا لحظته الآنية المغرقة في الحزن واستغرق فيها فنعى نفسه..

V

في مديح الغراب

في المقالة الســابقة تناولت الفكرة الذهنيــة المغلوطة المأخوذة عــن الغراب، والتي تربطه بالأحداث الســيئة وتعتبره من الطيور المشــؤومة، وتتطير حينما تراه فجأة أو تســمع صوته الذي يطلق عليه النعيــب، وذكرت أن وجوده في الكتب الســماوية كافة جاء بوصفه معلمًا ومرشــدًا لقابيل بن سيدنا آدم بعدما قتل شقيقه هابيل، واحتار في كيفية التصرف في الجثة، ثم ساق اللـه له الغراب الذي كان قــد مات رفيقه في ذات الوقت، فحفــر الأرض ودفنه، فانتبه قابيل لما فعله الغراب وقلده وســتر جثــة أخيه، ومن هنا ارتبطت صورة الغراب بالموت إضافة إلى أن سواد لونه الغطيس وصوته

العميق عززا هذه الصورة في ذهن الغالبية، ثم وقع في يدي كتاب عن الغراب، اســمه الغراب.. التاريخ الطبيعي والثقافي.. تأليف: بوريا ســاكس. ترجمة: ايزميرالدا حميدان.. من منشــورات دار كلمة، هذا الكتاب ثري بمعلوماته وحقائقه وطرائفه.. وبعد أن قرأته وجدت أني شــاركت في ظلم الغراب لنقص معلوماتي، لذا سأسرد بعضها في هذا المقال حتى يســتفيد بها بعض المهتمين بهذا الطائر أو الكارهون له دونما سبب.

لدينا مثل عامي دارج هو "ياما جاب الغراب لأمه" ويقال تحقيرًا وتصغيرًا للهدايا والهبات تافهة القيمة التي تهدى إلى الناس، قطعًا لم يرَ أحد غرابًا يهدي أمه هدية تافهة، والأعجب أن الغربان تفتتن بالأشياء البراقة وأطلق على بعضها لقب "الغراب اللص" لأنها اختطفت خواتم ذهبية أو ماسية بعد أن استلبها بريقها، ومن الطبيعي أنه بعد هذه القنصة سيعود بغنيمته إلى عشه ليهديها إلى أمه أو رفيقته أو أولاده (إذن من أين جاء هذا المثل العجيب؟).. الحكاية التالية ممكن أن توضح لنا سبب إطلاق هذا المثل، لورانس كيلهام، الذي ألف كتابًا مهمًا حول السلوك الاجتماعي لفصيلة الغربان، كان قد أطلق النار ذات مرة على غراب فسقطت منه ريشة واحدة إلى الأرض، ثم طار الغراب بعيدًا، عندما توقف "كيلهام" ليعيد حشو مسدسه، عاد الغراب وطار فوق رأسه، وأسقط بقايا التوت البري التي كان يأكلها على قبعته، فاستنتج "كيلهام" أن الغربان، بالإضافة

إلى كونها ذكية، لديها حس الدعابة أيضًا، ببساطة ممكن أن نخمن من هذه الحكاية أن القرويات وهن يطاردن الغراب كي يبعدنه عن محاصيلهن، كان الغراب يعود ويلقي عليهن بأسوأ هداياه.. بيض ممشش، ثمار تالفة، حشرات وخلافه.

ومن الأقاويل المغلوطة أيضًا عن الغربان التي كانت سائدة في أوروبا قبل عصر النهضة، أن الغربان تنقر عيون البغال والثيران والأبقار في المزرعة عمدًا، وعندما يرى الفلاحون أن حيواناتهم لم تعد ذات فائدة، يذبحونها ويسلخون جلدها، وبهذه الطريقة تحصل الغربان الذكية على فرصة لالتهام جزء من الذبيحة (كتاب شهير عن الطبيعة منشور عام 1349م) كما أن ارتباط الغربان السود بشدة بالموت في الثقافات الشرقية والغربية في العصور القديمة راجع إلى رحلتها القاسية في البحث عن الطعام، التي كان يقودها ذكاؤها إلى تتبع الجنود الذاهبين إلى القتال، لتنال من طعامهم وهم أحياء وقد يصبحون طعامها إذا ما قتلوا، وكانت هذه نهاية مرعبة، فكل محارب كان يعرف أن مصيره المحتمل هو أن تأكله الغربان، وكان هذا مزعجًا جدًا ومفزعًا، خاصة في الثقافات التي تعتقد أن قدر الأموات في العالم الآخر، يعتمد ولو جزئيًا على الدفن اللائق.

وبعد ذلك تضخمت وتغولت الأساطير التي تتناول الغراب،

لدرجة أن هذا الكتاب الذي أحدثكم بشأنه ذكر أن الإسلام كانت له نظرة أكثر سلبية نحو الغربان، وسرد أسطورة شهيرة في الغرب عن واقعة هجرة النبي محمد (ﷺ) إلى المدينة، عندما اختبأ في الغار من المشركين الذين يتتبعونه، لمحه الغراب وهو يدخل إلى الغار، وكان حينها طائرًا أبيض، وصرخ الغراب: (غار، غار!) في محاولة منه لخيانة النبي وإرشاد المشركين إلى مكانه في داخل الغار، لكن المشركين لم يتمكنوا من فهم ما قاله الغراب وانصرفوا، وعندما غادر سيدنا محمد (ﷺ) ملجأه، حوّل الغراب إلى اللون الأسود ولعنه بقوله إن على الغراب منذ ذلك اليوم أن يكرر نداء الخيانة. (الحكاية سانجة بالطبع واسطورة مختلقة فكل أدبيات العرب في عصور ما قبل الإسلام خاصة الشعر مليئة بوصف الغراب والتركيز على لونه الأسود وصوته الذي كانوا يعتبرونه منفرًا).

نصـــل إلى الجـــزء الذي خصصنـــاه في مدح الغـــراب علميًا وطرائفيًا..

تقـــع الغربان في قمة هرم عالم الطيـــور، فيما يخص أدمغتها، لأنها تمتلك أكبر الأدمغة نســبة إلى حجم جســـم أي طير، كما أن أدمغتها مزدوجة تمامًا بالخلايا العصبية.

وقد ســـرد الحكيم اليوناني (أيســوب)، الذي يقال إنه عاش في

القرن الســادس قبل الميلاد، أن غرابًا عطشان عثر على جرة بها بعض الماء، وكانت أثقل من أن يسـتطيع قلبها، فبدأ الغراب بإلقاء الحصى في فتحة الجرة، حتى ارتفع مستوى الماء واستطاع الشرب منهـا، وقد راقب علماء أمريكيون طائر الغراب، ورأوه وهو يقوم بإسقاط أجســام صلبة في كأس من الماء ليرفع مستوى الماء فيها، تمامًا كما في الحكاية التي ذكرها أيسوب في كتابه الشهير (خرافات أيسوب).

في مدينة ســينداي في اليابان قامت الغربان باكتشــاف طريقة حاذقة لكســر ثمرة الجوز، فهي تأخذ ثمــرة الجوز وتنتظر قرب طريق الســيارات، حتى يتحول لون الإشــارة الضوئية إلى اللون الأحمــر، فتهبط وتضع الجوزة أمام عجلة الســيارة وتحلق ثانية، وعندما يتحول لون الإشــارة إلى اللون الأخضر، تعود لتأكل قطع الجوزة التي كسرتها السيارة.

ومن مزايــا وطرائف الغربان أنها تتمتع بحيوية وتحب اللعب، فهي تقوم بالكثير مما يبــدو أنه لعب بلا جدوى، مثل حمل غصن صغير عاليًا وإســقاطه، ثم الانحدار بسرعة نحو الأسفل والتقاطه مــرة ثانية، كما تتدلــى الغربان أحيانًا على الأغصان بالشــقلوب دون أي ســبب واضح، وتقف في بعض الأحيان على قدم واحدة، ويقوم بعضها بتنفيذ شــقلبات خلفية في أثناء الطيران، وشــوهدت

الغربان في منطقة (ألاسكا) تقوم بكسر قطع من الثلج المتجمد على الأسـطح المائلة وتسـتعملها كمزلجة لتنزلق عليها.. ومسك ختام تقاليد الغربان الصارمة أنها تكتفي بوليف أو وليفة واحدة طوال مدة الحياة، وإذا مات الزوج أو ماتت الوليفة يعيش ناسـكًا بعدها (وهو يتزوج وعمره ثلاث سـنوات ويعيش أحيانًـا لأكثر من 50 عامًا) بالذمة هل هذا طائر يستحق كل هذه الكراهية؟

في ذم الكروان

في البداية يهمني تقديم عتاب صغير للعملاقين طه حسين والعقاد وذلك لما يلي:

في الثلث الأول من القرن الماضي، وبالتحديد في عام 1933، رأى الاستاذ عباس العقاد أن التغني بصوت طائر البلبل في الأدبيات العربية ليس مقبولًا لأنه تغن أوروبي، أي منقول من الأدبيات الغربية، خاصة ولدينا طائر صوته جميل وعذب ونعرفه جيدًا وهو الكروان الذي يصاحبنا صوته بعد الغروب فنأسى له وتنشرح قلوبنا لحلاوة صوته، والذي يعتقد العامة أن صوته مقدس وأنه

لا يغني بل يردد كلمة "الملك لك الملك لك" معلنا عن وحدانية الكون، ونشر العقاد ديوانًا شعريًا تدعيما لفكرته سماه (هدية الكروان) في عام، 1933 وقد تلقف منه الفكرة أستاذنا طه حسين وكتب روايته الشهيرة (دعاء الكروان) ونشرها عام 1935 وبصدرها إهداء للأستاذ العقاد وهذا نصه: إلى صديقي الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد (سيدي الأستاذ: أنت أقمت للكروان ديوانًا فخمًا في الشعر العربي الحديث، فهل تأذن في أن أتخذ له عشًا متواضع في النثر العربي الحديث، وأن أهدي إليك هذه القصة، تحية خالصة من صديق مخلص. طه حسين)، واحتفى الناس بهذه الرواية احتفاءً كبيرًا وتحمس لاحقًا المخرج الكبير هنرى بركات لرواية دعاء الكروان وأخرج فيلمًا بنفس الاسم في عام 1959 تولى بطولته الفنان أحمد مظهر والفنانة فاتن حمامة، وقد صار هذا الفيلم الجميل من كلاسيكيات السينما المصرية وفي استفتاء أجرته مجلة الفنون المصرية عام 1984 جاء في المرتبة السادسة في قائمة أفضل عشرة أفلام في تاريخ السينما المصرية، وعلى الصعيد الدولي تم اختياره في عام 1959 ليمثل مصر في مهرجان برلين، وكان هذا حدثا سينمائيًا متميزًا آنذاك، وقد اكتسب الفيلم أهمية بالغة أخرى لم يدركها الكثيرون، وهي أن الفيلم يتضمن صوت طه حسين وهو يعلق على نهاية البطلة قبيل النهاية بصوته الأجش الرخيم بينما تتلقى الرصاصة التي ستودي بها وصوت الكروان يعلو بنداه

"ترينه كان يرجع صوته هذا الترجيع، حين صرخت هنادي في ذلك الفضاء العريض" وهذا التسجيل لصوت عميد الأدب العربي على الشريط السينمائي يعد من التسجيلات النادرة التي حفظتها لنا التقنيات الحديثة، بالإضافة إلى صوته في مقدمة البرنامج الإذاعي القديم "لغتنا الجميلة" الذي كان يعده ويقدمه الشاعر فاروق شوشة، والذي يقول فيه طه حسين بصوته الشجي المميز "لغتنا الجميلة يسر لا عسر، ونحن نملكها كما كان القدماء يملكونها" وللعميد طه حسين أيضا حديث تليفزيوني شهير سجله قبيل وفاته ويحاوره فيه كوكبة من الأدباء والمفكرين على راسهم نجيب محفوظ وأنيس منصور ويوسف أمين العالم ويوسف السباعي وآخرون، وقد تكون له أحاديث أخرى مسجلة أتمنى ألا تكون قد نالها التلف من سوء التخزين.

أغلبنا قرأ رواية (دعاء الكروان) أو شاهد الفيلم السينمائي المأخوذ عنها، وهي رواية وصفية تعتمد على السرد الذاتي من وجهة البطلة آمنة، عبر فلاشات باك كثيرة تفسر لنا معاناتها بين حبها للمهندس الذي اغتال براءة أختها الكبرى هنادي وتسبب في موتها وصراعها مع فكرة الثأر التي قادتها للعمل عند نفس المهندس الآثم، ثم تقلب مشاعرها حتى الوقوع في حبه وتيقنها من حبه لها، ثم عرض الزواج الذي يأتيها من المهندس الذي أغرم بها رغم الفارق الطبقي الكبير حتى مقتلها على صدر المهندس، ورغم

أن للكروان دورًا صغيرًا في تنمية الصراع الدرامي، إلا أن وجوده مؤثـــر في الرواية فهي تأتنس بصوته وتأخذ منه عهدًا بأن يذكرها كل ليلـــة عبر صوته وندائه بأختها هنادي التي غدر بها حتى تظفر بالثـــأر من المجرم، ويظل صوت الكـــروان يصاحبنا حتى النفس الأخير من تلك الفتاة المسكينة آمنة.

الدعوة التي أطلقها الأســتاذ العقاد وتحمس لها د. طه حســين وتبعهـــم بعض الأدبـــاء والخاصة بنبـــذ الأوصاف والتشـــبيهات والاســـتعارات المنقولة عن المخيلة الغربية والتي لا تتناسب أحيانًا مع بيئتنا وظروفنا، أنا معها تمامًا، وللأســـف هي ظاهرة لا تزال موجودة حتى الآن وســـط بعض المبدعين الذين تشكلت ذائقتهم من خلال ما اطلعوا عليه مـــن الآداب الأجنبية المترجمة، وليس عبر ملاحظتهم وتراثهـــم، ويحضرني في ذلك قصيدة قرأتها لشـــاعر مصري عن طفل يقود دراجته بينما يتســـاقط عليه الثلج وهو يمر بالطريـــق، ثلج إيه يا عم الحاج واحنـــا في مصر! وبعضهم عندما يكتب واصفًا الفلاح المصري تجده نســـخة فوتو كوبي من الفلاح الأرجنتيني والكولومبي! ناهيك عن وصف لقاءات العشـــاق أسفل شجر الزيزفون! أتمنى أن يدلني شخص واحد على شجرة زيزفونة في بر مصر، هذا بخلاف التشدق بفصل الربيع وجماله وبهائه ولعن سنسفيل الخريف وأيامه، بينما خريف مصر من أعظم فصولها من

جهة اعتدال طقســه وصفاء.جوه خلافًا للربيع الذي نقضيه وســط عواصف وأتربة وطقس متقلب لا يطاق..

ونصل إلى طائر الكروان الذي أثنى على صوته العملاقان طه حسين والعقاد، وسار على دربهما الكثير.. أولًا طائر الكروان من أشرس الطيور وأكثرها قسوة رغم صغر حجمه، يسلي وقته بكسر بيض الطيور الأخرى في غفلة منها، والمعروف عنه أنه يضع بيضه في شقوق عرضية في الأرض، وهو طائر في منتهى الحيطة والحذر لذا لا يضع بيضه في شق واحد، بل يوزعه على الشقوق، ومنه اشتق علم السياسة هذه الفكرة وعرفوا بها السياسي الحذر بأنه لا يضع كل بيضه في سلة واحدة، ونصل إلى ما رآه الناس ميزة عظيمة فيه وهو صوته الشجي، الصوت الذي يطلقه الكروان ليس المقصود به تسبيح رب الملكوت حسب الاعتقاد الشعبي، ولا مؤانسة المحبين ومواساة المعذبين كما تصور العشاق، صوته هو مجرد صيحات حادة يطلقها في الظلام ليخدر بها الحشرات والطيور الصغيرة ليفتك بها، تمامًا كنظرات القط التي يصوبها تجاه الفئران فتجعلها تشل في مكانها ولا تقدر على التحرك، باختصار يعني حضرتك تكون جالسًا بجوار حبيبتك تتغزل في محاسنها وتتلمس يديها ويمر بك صوت الكروان فتنتشي أكثر دون أن تدرك أن في هذه اللحظة بالظبط سينغرس منقار هذا الطائر في بطن عصفور صغير لم يتعرف على الدنيا بعد.

✓

ما تبطل تمشي بحنية.. ليقوم زلزال

شاهدت مراسم إحياء الذكرى العاشرة في تايلاند لتسونامي الذي يعني "أمواج عاتية" تقتحم وتجتاح وتطيح بكل شيء في طريقها مخلفة خلفها ضحايا بعشرات الألوف وخسائر في الأبنية والممتلكات، وتسونامي تايلاند يعتبر من أسوأ الكوارث الطبيعية في تاريخ البشرية لتسببه في مقتل حوالي 22 ألف شخص في 14 بلدًا تطل على المحيط الهندي، منهم 3000 ضحية أجنبية، وشرد الآلاف ودمر مساكن وأزال منتجعات، وقد تسبب في هذه

الأمواج زلزال كبير "حدث يوم 26 ديســمبر عام 2004" قوته 9. 3 مـــن مقياس ريختر، وهو الأقــوى في العالم منذ عام 1963. وقد أقيمت هذه المراسم الحزينة في أغلب بلدان آسيا المتضررة من هذا الزلزال مثل تايلاند وسريلانكا وإندونيسيا وبعض الدول الأوروبية التي قتل بعض رعاياها بسببه مثل سويسرا وفرنسا.

وقد أعادت لي هذه الذكرى - مع الفارق - مشاهد زلزال 12 أكتوبر 1992 الذي هاجم مصر لمدة نصف دقيقة تقريبًا، وكانت قوته بمقياس ريختر 5.8 درجة، وقد تسبب في وفاة 545 شخصًا وإصابة 6512 وشرد حوالي 50000 آخرين، إذ أصبحوا بلا مأوى، وشهدت مصر بعده عدة توابع استمرت لمدة أربعة أيام تالية، ولأننا غير معتادين والحمد لله على مثل هذه الكوارث الكبيرة ظل هذا الزلزال محفورًا في وجدان كل من عاصره حتى الآن، والأجيال التالية التي أسعدها الحظ بعدم معرفته من المؤكد أنها سمعت عنه من أهاليها، وإن غفل الأهالي عن ذلك فالحكومة لم تغفل وتسمعهم يوميًا ما يشير إليه (هيئة الأبنية التعليمية التي تأسست لترميم المدارس التي انهارت بسببه، أو مساكن الزلزال في المقطم، ومدينة السلام كما ينادي عليها أصحاب الميكروباص).

ومـــن أنبل ما حدث خلالـــه من وجهة نظري، إنســـانية كاتبي المفضـــل (يحيى حقـــي) الذي كان أيامها مريضًـــا جدًا ومحجوزًا

في مستشــفى "المقاولون العرب"، وعندما حدثت المأساة وتكدس المصابون في المستشفيات ولم يجد بعضهم أسرّة تستقبلهم، رفض أن يبقى في ســريره لحظة واحدة، وقرر أن يتركه لمريض شاب في حاجة إلى العلاج، ومات يحيى حقي في منزله بعد شهرين من وقوع الزلزال بشرف ونبل، وللحقيقة لقد أفزعني هذا الزلزال جدًا وارتعبت من كون الأرض تميد تحتنا، التي محت اليقين الذي نشأنا عليه بثبات الأرض والاطمئنـــان إلى هذا الزعم، وأذكر أن الناس أيامها تحولوا إلى فئتين: فئة اتجهت إلى الدين واعتصمت به؛ حتى كان من الصعب أن تمر في الشــوارع فــي مواعيد الصلوات من كثرة المصلين الذين يفترشــون الطريق.. وفئة أخرى انغمست في اللهو واللذة حتى فاضت بهم البارات وأندية الليل، وأذكر أيضًا أني كنت كثيرًا ما أرى أســرًا كاملة تبيت داخل سياراتها في الشوارع وهــي تحتضن أطفالها من فرط الرعب، الرعب الذي لا أســتثني نفســي منه، فقد كنــت أجلس وأمامي كوب مــاء أنظر إلى حافته بقلق كل بضع دقائق حتى لو اهتز ســطحه جريت فزعًا، وتعقدت أيامها من أغنية محمد رشــدي البديعة (ما تبطل تمشي بحنية ليقوم زلزال)، لأني كنت مرعوبًا من أنه يستدعي بها الزلزال.

وكان وزير البحث العلمي آنذاك هو د.عادل عز، أستاذي السابق بكليــة التجارة جامعة القاهرة، وبمجرد حدوث الزلزال اســتدعى خبراء من اليابان لدراســة الموقف على الطبيعة، بحكم أن اليابان

من أكثـــر الدول تعرضًا للزلازل، ووصل الخبراء في اليوم التالي مـــن حدوثه، وعقد معهم على الفور اجتماعًا بوزارة البحث العلمي بقصـــر العيني، وأثناء الاجتماع حدث تابع قوي من توابع الزلزال قوته حوالي 4 ريختر، فانبرى د.عادل قائلًا لهم بقلق إن هذا التابع أقل من زلزال الأمس بقليـــل، تبادل الخبراء النظر ثم قال كبيرهم إنهم كانـــوا ينتظرون مثل هذا الزلزال حتى يقلّب لهم الســـكر في الشاي.

بعد خراب مالطا

من أحب أغنيات المطرب محمد رشدي بالنسبة لي أغنية "تحت الشجر يا وهيبة"، خاصة وهو ينطق كلمة الشجر بالسين "السجر" كعادة أهل الريف في قلب حرف "الشين إلى سين"، ولو سمع أهل (مالطا) هذه الأغنية سيعجبون بها فالشجر في لغتهم هو السجر، والشمس هي الشمش، والنجم هو الكوكب بالمالطية، والكوكتيل هو خلطبيطة، وكلمتا "داخل وخارج" يعبرون عنهما بـ"جوه وبراني"، وكلمة "كثير" تعني عندهم "حفنة" وقليل تعني "فتات"، والشاب الصغير يطلقون عليه "زعزوع زغير" مثل اللهجة التونسية، ويضيفون "واو" فقط للجمع كالإسكندرانية وأهل شمال أفريقيا

فيقولون "نلعبو... نحزنو"، وإذا سافرت هناك وأردت أن تقول بالمالطي "هل يوجد أحد يتكلم الإنجليزية؟" تقول "هون شي حد يتكلم إنكليزي؟" والأهم في رأيي لو أحببت بنت مالطية - وهن حسناوات بالمناسبة - تستطيع أن تعبر عن حبك بالمالطي بسهولة وتقول لها "نحبك إنتي".. فنسبة اللغة العربية في النسيج اللغوي المالطي حوالي 54 % والإيطالية 40 % والإنجليزية 6 %. ويعود ذلك إلى أن العرب سيطروا على (مالطا) لمدة 220 عامًا في عصر الفتوحات الإسلامية الأول، وزال الحكم العربي عام 1091م على يد ملك "صقلية". لكن (مالطا) في الوجدان الشعبي مرتبطة بأمثال سيئة منها: "زي اللي بيأذن في مالطا" ويضرب لمن لا يجد من يصغي إليه، والسبب يعود إلى الحرب الصليبية التي أزالت من مالطا كل شيء له صلة بالإسلام والأتراك والعرب لدرجة أنهم بنوا في عاصمتها (فاليتا) وحدها 32 كنيسة - وللعلم كانت مالطا مطمعًا للغزاة مثلنا بالضبط لموقعها الاستراتيجي بين قارتي "أفريقيا وأوروبا"- ومن هنا أصل المثل.. من يؤذن للصلاة هناك لن يجد من يلبي النداء، وهناك مثل آخر يطلق عند اليأس وفقدان الأمل وهو "بعد خراب مالطا" ويعود إلى الفترة التي احتل فيها "نابليون بونابرت" مالطا عام 1798م لمدة عامين، عاث فيها جيشه دمارًا وفسادًا، فسرقوها ونهبوها وأجبروا أهلها على الهرب بحياتهم إلى

جزيرة (صقلية) حتى حررها الإنجليز عام 1800م وأعادوا أهلها فوجدوها خرابًا..

لكن لماذا لم يحتفظ لنا الوجدان الجمعي بشيء حسن عن مالطا؟ ربما للحادثة التاريخية الشهيرة عام 1882 والمعروفة بـ"المصري والمالطي"، وبدايتها رغبة (إنجلترا) في احتلال مصر وكان "أسطولها" بالقرب من الإسكندرية، التي كان يعيش بها آنذاك أعداد كبيرة من الأجانب، وحدث خلاف بين رجل مالطي من رعايا إنجلترا مع رجل مصري يعمل "حمّار" على أجرة الركوب، وطعن المالطي المصري وحدثت فتنة بين الأجانب والمصريين، فتلككت (إنجلترا) وضربت الإسكندرية بالمدافع بحجة حماية الرعايا الأجانب، ومن هنا جاءت ذريعة احتلال مصر الذي بدأ في عام 1882م وانتهى في عام 1954م. وربما أيضًا نكرهها لأن مالطا جعلها الإنجليز المنفى المختار للوطنيين المصريين كما حدث عام 1919م عندما نفت إليها الزعيم "سعد زغلول" مع رفاقه الثلاثة "محمد محمود باشا" و"إسماعيل صدقي باشا" و"حمد الباسل باشا". وأخيرًا عودة إلى الأسماء العربية بدولة (مالطا الشقيقة). هناك يسمون وزارة الشباب.. وزارة الزعزع، ويسمون وزارة الدفاع.. وزارة البمب والزوابع.

هو ده العندليب يا ناس!

العندليب طائر رقيق الجسم يشتهر ذكره بالصوت العالي الجميل وبتنوع صفيره خاصة في مواسم التكاثر، وهو يغني طوال النهار، ويتفنن بالغناء في المساء في الوقت الذي يندر فيه غناء الطيور وهذا يجعل غناءه مميزًا ولافتًا، وهو يتعمد الغناء في المدن المسكونة لمقاومة الضجيج.

وقد أحسن النقاد والجمهور بإطلاق لقب العندليب على المطرب عبدالحليم حافظ لرهافة حسه ورقة مشاعره وصوته الجميل الذي احتل به قلوب الملايين، وما أقوله ليس تحيزًا لفنه وسأدلل على استحقاقه لهذا اللقب ببضعة سطور، ليس منها أن جنازته سار بها

عدد يقدر بمليونين ونصف مليون شخص، وتعتبر ثاني جنازة شعبية بعد جنازة الزعيم الراحل عبدالناصر في الشرق الأوسط وليس منها أن أغانيه ما زالت تطربنا حتى الآن، ولا أن فترته يطلق عليها حاليًا زمن الفن الجميل. ولنبدأ بإطلالته الأولى في أغسطس من عام 1952 عندما غنى أغنية صافيني مرة بحفل في الإسكندرية، ولم يتقبل الجمهور غنوته وطالبوه بغناء أغنية لعبدالوهاب، فرفض أن يصعد على سلم نجاح غيره وانصرف، ثم صمم على غنائها في العام التالي بمناسبة عيد الجمهورية فنجحت الأغنية وانطلقت شهرته، وفي أوج مجد وسطوة أم كلثوم عندما غنت حتى وقت متأخر في إحدى حفلات الثورة أمام القائمين بالثورة، ووجد نفسه يغني بعد انصرافهم لم يجبن وهو ينتقد ذلك علنيًا مما دفع بناصر لعمل حفل آخر بالإسكندرية بمناسبة الجلاء وجعله المغني الرئيسي للحفل، بالإضافة إلى حماسته للقضايا الوطنية واهتمامه بالأغاني التي قدمها في مناسباتها واستمرار هذه الأغاني دليل على جهده المبذول.

عبد الحليم مطرب لم يركن إلى صوته الحلو بل دعمه بذكائه وشجاعته؛ شجاعته التي تختفي خلف جسده النحيل، والتي سأذكر منها حادثة واحدة فقط تبينها لنا، في شهر أغسطس من عام 1972 كان عبد الحليم حافظ متواجدًا مع فرقته بدولة المغرب لإحياء حفلة هناك كعادته السنوية إكرامًا للشعب المغربي ولصديقه الملك

الحسن الثاني، وفي يوم 16 أغسطس تواجد بمقر الإذاعة المغربية يؤدي بروفاته الأخيرة، في ذات توقيت محاولة الانقلاب التي قام بها الجنرال أوفقير بمساندة من افراد من سلاح الجو الملكي لإسقاط طائرة الملك القادمة من برشلونة، وأفلت الملك بقراره المفاجئ ترك الطائرة وركوب القطار! المهم أن رجال الانقلاب ظنوا أن المحاولة نجحت فاقتحموا الإذاعة ووجدوا حليم وتحت تهديد السلاح طلبوا منه إذاعة بيانهم، لكن حليم بذكائه المعهود طلب من كبيرهم استشارة قواده لأنه لا يصح أن مصري يلقي بالبيان لأن العالم كله سينسب نجاح المحاولة لمساندة مصرية! وفعلًا عندما بلغ أوفقير ذلك صرف النظر عن الاستعانة بعبدالحليم، ثم فشلت المحاولة وأعدم أوفقير. هذا مطرب شجاع بخلاف غيره ممن تطلق عليهم الألقاب هذا الزمان، الذين فروا إلى الخليج وأوروبا أثناء ثورة 25 يناير، والذي بقي منهم أثناءها وتحمس الشباب لأغنيته خلالها، ظل مرتعدًا خائفًا من أن يلقى القبض عليه، وبعدها فضل يطنطن بهذه الأغنية.. طب "إزاي"؟.

من رمش جفونك ياه..!

أكاد أجزم أن الرموش من أكثر أعضاء الإنسان التي تغنى بها الشعراء وكتاب الأغاني على وجه التحديد، وهي تأتي بعد القلب والروح والشعر والشفاه وقبل الكعب والفشة والكلاوي والقفا، وأعتقد أن أجمل ما قيل فيها هو الموشح الأندلسي الشهير: "كل السيوف قواطع إن جردت وحسام لحظك قاطع في غمده"، وبلاغته أنه شبه الأهداب في إطباقها كحد السيف البتار والحبيبة عندما تسدل أهدابها تدللا تصرع حبيبها من فرط الهوى، والأدب الغربي يتعامل مع الرموش مثلنا على اعتبار أنها أدوات حادة، والأديب الإيطالي (تيستيانو سكاربا) يصف الرموش بأنها أشواك تشبه

بتّلات النباتات آكلة اللحوم، تتفتّح عن آخرها كي تخيف الفريسة، فلا يجرؤ شيء على الوقوف على حدقة العين. وشعراء الأغاني عندنا ركزوا أيضًا على الجانب الدموي المتخيل للرموش بداية من "رمش عينه اللي جرحنى رمش عينه" لمحرم فؤاد، و"سمع في القلب حاجة وقال ده رمش عين، صاحبه رماه وناسي بقاله جمعتين" لعبدالحليم، وصولًا إلى الرمش الهجام الخطاف في أغنية محمد رشدي الشهيرة: "صياد" التي يقول فيها: "رمشك خطفني من أصحابي وأنا واد صياد"، ولم ينس شعراؤنا أيضًا الرمش السجادة الذي سار عليه وديع الصافي وهو يغنى: "على رمش عيونها قابلت هوى، طار عقلي مني وقلبي هوى"، والرمش السرير الذي قالت عنه وردة: "افرشلي الرموش دفيني من نسمة هوا"، و"بين رمشين العين نيمته، بين رمشين العين غطيته"، وهو مقطع من أغنية لفريد الأطرش، ولمحمد فوزي مقطع شبيه يقول: "من يوم ما كلمته في القلب خبيته، وفي عيني نيمته وبرمشي غطيته"، أي (فرش وغطا)، وهناك بعض شعراء أضافوا وظائف جديدة للرموش، منها السلام والمصافحة والمشاورة، ومنها مقطع لمحمد فوزي أيضًا يقول فيه: "عيون تشوفك تندهلك برموش تشاور على الخدين"، وكذلك أغنية كارم محمود الشهيرة: "سحب رمشه ورد الباب، كحيل الأهداب، نسيت أعمل لقلبي حجاب"، فهو أولًا فتح الباب وتقدم رمشه للمصافحة، ثم انسحب بسرعة، وأغلق الباب خلفه،

بعد أن رمى العاشق بسحره الذي لم يعمل الشاعر له حسابًا بتميمة أو حجاب، ثم هناك الرموش العابدة الناسكة، خاصة وهي تتأمل الأطفال كما تغنت "صباح" لطفلي عماد حمدي، (في الفيلم طبعًا): "شمس وقمرين ربي يخلي، يا رموش العين سمي وصلي".

وهناك أيضًا أغنية شعبية من الفولكلور ذكرها الأستاذ توفيق الحكيم في كتابه: (يوميات نائب في الأرياف)، ويقول مطلعها: "فتش عن النسوان تعرف سبب الأحزان، ورمش عين الحبيب يفرش على فدان"، والجزء الأول منه: "فتش عن النسوان"، هو بعينه المثل الفرنسي Cherchez la femme الذي يقولونه عند حدوث جريمة، والجزء الثاني به مبالغة شديدة جدًا، فإذا كانت رموش امرأة واحدة قادرة على فرش 4200 م^2 وهي مساحة الفدان، فإن ألف امرأة من عينة حبيبة هذا الشاعر كافية جدًا لجعل القاهرة مظلمة تمامًا أثناء النهار! والذي يدهشني أن أستاذنا يحيى حقي اعتبر هذا البيت بالذات من عيون الشعر العربي، وساق أدلة على ذلك لم أقتنع بها، ولكني أتفق معه فقط في أنه من الأبيات الرائعة التي أبدعتها القريحة المصرية الشعبية.

والغريب أن كل هذه الأبيات التي قيلت عن الرموش ووصفتها بالقاتلة والجارحة والذابحة، والتي تشبع نومًا أو لا تذوق النوم، لم يتوقف أمامها الرقباء ولم يمنعوها، إنما ثاروا وتوقفوا أمام كلمة:

"من رمش عيونك ياه" فقط ومُنعت هذه الأغنية من البث في الإذاعة المصرية من عام 1957 بسبب الأداء المثير لصباح وهي تغنيها في فيلم "إغراء" في موقف كانت تتغزل فيه بعيون شكري سرحان! وبسبب مبالغتها في الدلال عند أداء كلمة "ياه" تم منع الأغنية، وهذا هو السبب الحقيقي لمنعها آنذاك وليس ما ورد في مسلسل (الشحرورة) من أن الأغنية منعت، بدعوى أن صباح قصدت بأغنيتها "جمال عبدالناصر"! وهذا غير حقيقي بالطبع، وليس بالضرورة أن تكون قد قصدت "شكري سرحان"، لأنه - رحمة الله عليه- ينطبق عليه قوة البنية والأداء الجيد لكن مش لدرجة سحر العيون والرموش.

بعد العشِا.. مافيش خشا

هذا مثل سوداني شهير قريب إلى حد بعيد من الطقطوقة التي غنتها سلطانة الطرب "منيرة المهدية" في أوائل القرن العشرين والتي مطلعها "بعد العشا يحلى الهزار والفرفشة" وستجد في أمثالنا العربية أقوالا مأثورة كثيرة تنتهج نفس المنهج ونتائجها واحدة، كما المثل المصري العتيق "البلد اللي ما تعرف حد فيها.. اقلع ملط وامشي فيها" والشوام عندهم نفس المثل مع تغيير طفيف "البلد اللي ما تعرف حد فيها.. اعمل ببي فيها".. وكلها أمثال تحرض على التستر وراء ظلمة الليل وانتهاك المحظور في غيبة الرقابة البشرية، ولو كنت من الذين تغربوا قليلًا أو طويلًا في البلاد

الأجنبية خاصة، ستدرك أن هذا ما يحدث من مواطنينا هناك، لا يستنكفون من العمل في أعمال دنيا لا تليق بمؤهلاتهم ولا دراساتهم، وينغمسون في ملذات ومباهج الحياة هناك وهم لا يفكرون لحظة في النظم التي جعلت الحياة متيسرة وجميلة هناك حتى يعودوا بما يفيد بلدهم، أغلبهم عند زياراته القصيرة لموطنه ينتقد فقط الشوارع غير المستوية والتراب والطقس والرائحة والمعاملات، ويتهم أبناء موطنه بالجشع والطمع والسرقة، ويعيش في الغربة كأنها أبد.. ثم عندما تقترب أعمار بناته من المراهقة يفر فرار السليم من الأجرب عائدًا إلى بلاده خوفًا من العادات والتقاليد الغربية التي عاث فيها فسادًا ولا يرضى لبناته الخوض فيها! وهذه هي الشيزوفرانيا التي قبعت في وجداننا تحت تأثير المرويات والحكم والأقوال المأثورة. كل شيء بتمنه على رأي المثل برضه، ولو أقمت في بلد غربي لمدة ليست بالقصيرة سترى بعينك أبناء الجيل الثاني من المهاجرين العرب الذين - كبروا- ولا يعتبرونهم غربيين خلصاء وهم يجلسلون على دكك الحدائق والمنتزهات يكلمون أنفسهم وقد نأى عنهم موطنهم الأصلي ونفر منهم موطنهم البديل، لذا أرى صحة المثل (ان لم يكن هناك "خشا" في النهار فلا "خشا" في الليل).

وكلمات طقوقة منيرة المهدية كانت تقول"بعد العشا يحلى الهزار والفرفشة.. انسى اللي فات وتعالى بات.. مستنظراك ليلة التلات بعد العشا.. تلقى الحكاية متوضبة وقايدة بايدي الكهربا..

واقعد معاك على هواك.. وبلاش كتر الخشا".. وكان ذلك في ظل الأوضاع المتردية لكن عندما قامت ثورة 1919 تحمست منيرة جدًا لها، وغنت طقوقتها الشهيرة تناصر الزعيم سعد زغلول غير أبهة بالمحتل الإنجليزي "شال الحمام حط الحمام من مصر لما للسودان.. زغلول وقلبى مال إليه.. أنده لما احتاج إليه" وكانت من أوائل المتحمسات لكفاح المرأة المصرية لدرجة حرصها قبل بداية أي عرض مسرحى على غناء طقطوقة" الواحدة منا بايدها تصون ناموسها وعفافها.. تدوس غرامها برجليها عشان وطنها وشرفها".. وقد ماتت سلطانة الطرب منيرة المهدية عام 1956 عن عمر يناهز الثمانين عامًا، وهي أول سيدة عربية تقف على خشبة المسرح وأول مطربة تسجل لها أسطوانات موسيقية، ولها عدد كبير من الطقاطيق والأغنيات ومن المؤسف أن الموجود منه قليل جدًا، ولها أعمال مسرحية غنائية كثيرة منها.. كارمن وتاييس وفيلم سينمائي واحد هو "الغندورة" إنتاج عام 1935 من إخراج الإيطالي "ماريو فولبي" قصة بديع خيري وشاركها في تمثيله بشارة واكيم وأحمد علام، وللأسف أيضًا هذا الفيلم مفقود كأغلب تراثها.. رحم اللـه منيرة المهدية ورحم طقاطيقها وأيامها.

حين قاد عمار الشريعي الموتوسيكل!

وجد أحد معارف الأستاذ عمار الشريعي في مجلة تصدر عن المركز الروسي بالقاهرة موضوعًا طبيًا عن نجاح فريق طبي روسي في علاج ضمور العصب البصري وإعادة البصر لبعض فاقديه؛ وضمور العصب البصري هو المرض الذي أودى ببصر الموسيقار الكبير منذ مولده، فأرسل المجلة إلى عمار لكي يقرأ الموضوع لأهميته، أمسك عمار بالمجلة بسرور وأرسل ليأتي بصديقه الرسام وفنان الكاريكاتير سعيد الفرماوي لكي يقرأ له

الموضوع بتفاصيله، وسعيد من أصدقائه الحميميين ضمن الجروب الفني الكبير لجامعة عين شمس في عصرها الذهبي والذي كان يضم أيضًا عمر خورشـــيد وفاروق الفيشــاوي ومحمود حميدة وشوقي شامخ وسامي مغاوري وأحمد عبد العزيز وآخرين.

ناول عمار المجلة لصديقه سعيد وهو مضجع ببجامته على الكنبة يترنم بصوت خافت كأنه يستدعي الوحي للحن جديد، وانهمك سعيد يُشكل الموضوع الطبي لغويًا حتى يقرأه بشكل سليم لأن أذن عمار لا تبتلع الأخطاء ولسانه لاذع السخرية، ثم أعلن لعمار أنه سيبدأ في القراءة، فاعتدل عمار وأرهف سمعه، وبدأ سعيد يجتهد في الإلقاء ويرخم في صوته ويجوّد وهو ينتقل بين الفقرات، ثم انتبه بعد فترة لصوت منتظم رتيب وإذ به يجد عمار في أعز نومة! وفي الصباح عاتب سعيد عمار وهو يقول: يعني ينفع ياعمار أقرالك الموضوع اللي جايني عشانه طول الليل الاقيك نايم؟ ضحك عمار ببراءة وهو يقول: بصراحة أول مابتديت تقرأ اكتشفت إني مش عايز أفتح! وسأله سعيد مندهشًا: ليه؟ أجابه عمار: أصلي عملت كل اللي أنا عايزه وأنا أعمى.. عملت مزيكا.. واستمتعت بالحياة وعندي تصور في ذهني لكل حاجة في الدنيا.. للغروب والشروق للطيور والحيوانات.. حتى أصحابي ولو فتحت دلوقتي حاشاورلك عليهم كلهم رغم أني ماشفتهمش بما فيهم إنت... إيه الداعي أني أعمل العملية وتنجح وأرجع انشغل باكتشاف أشياء عندي تصورها..

أو أفرح باكتشافها زي الأطفال بعد ما شبعت من الدنيا. سأله سعيد: طب إيه هو الشيء اللي ماوصلتش لتخيل عنه؟ أجابه عمار: المراية... مش عارف إيه السطح المصقول الصغير ده اللي بنلاقي نفسنا جواها!

هذا الفنان العبقري صاحب الألحان الغنائية والموسيقى التصورية البالغة 50 عملًا سينمائيًا و150 مسلسلًا تليفزيونيًا و20 عملًا اذاعيًا بالإضافة إلى المســرحيات والأوبريتات الغنائية وحاصد الجوائز والأوســمة المحلية والعربية والدولية.. هو خريج كلية آداب عين شــمس عام 1970 قسـم لغة انجليزية إلى جانب دراسته الأكاديمة الموســيقية.. من الطبيعي أن تكون رؤيتــه بمثل هذا الصفاء الذي دفعه لعدم الســعي وراء علاج يعيد بصره إليه فبصيرته كفته كل شيء.

وعمار كانت عنده رغبة في قيادة الموتوسيكل في شبابه، وظل يضغط على صديق له حتى يتركه يقود موتوسيكله.. ومنحه الصديق هذه الفرصة بشرط الجلوس خلفه لتنبيهه من السيارات القادمة.. ومرت أول ربع ساعة بسلامة.. ثم لمح الصديق سيارة تاكسي قادمة فصرخ في عمار: حاسب التاكسي يا عمار.. حاسب التاكسي يا عمار... طراخ.. وحدث التصادم وربنا ستر لم يصب عمار ولا صاحب الموتوسيكل إلا ببعض الرضوض، وعفا عنهما صاحب

التاكسي بعد تدخل الأهالي، وعندما عاتب الصديق عمار وهو يقول: عمال أقولك حاسب التاكسي يا عمار.. حاسب التاكسي هو إنت مكنتش سامع! رد عمار بخفة دمه المعتادة: أحاسب التاكسي إزاي وأنا مش معايا فلوس!

يا مين يقولي أهوى!

في أوائل شهر سبتمبر من عام 1940 كانت المطربة أسمهان تمر بالقرب من ترعة الساحل الموجودة في مدينة "طلخا" حاليًا، وهي بداخل سيارتها تتمرن على أداء قصيدة أبي العلاء المعري "غير مجدٍ" التي لحنها لها الشيخ (زكريا أحمد) استعدادًا لغنائها في اليوم التالي بالإذاعة، وعلى حين غرة سمعت صوت آلة ضخ بخارية تعمل على الترعة؛ فارتعبت وألقت بالقصيدة، وبعدما هدأت قالت لزميلها في السيارة الأستاذ محمد التابعي: كلما سمعت مثل هذه الدقات تخيلت أنها دفوف جنازة. ويشاء القدر أنها بعد أربع سنوات في 14 يوليو 1944 تنحرف بها السيارة وتسقط في نفس

الترعة، حيث لقيت مع صديقتها (ماري قلادة) حتفهما، بينما لم يصب السائق بأي أذى وهرب واختفى نهائيًا، مما ألقى شكوكًا كثيرة على الحادث، ووجهت أصابع الاتهام نحو المخابرات الإنجليزية والألمانية وزوجها الأول حسن الأطرش وشقيقها فؤاد الأطرش وزوجها الثالث الممثل أحمد سالم ومنافستها المطربة أم كلثوم، ومثلت أسمهان في فيلمين هما: (انتصار الشباب) و(غرام وانتقام)، ولها مجموعة من الأغنيات الرائعة، منها "ليالي الأنس في فيينا" و"يا مين يقولي أهوى"، وقد دفنت بالقاهرة في منطقة البساتين، ودفن جوارها بعد ذلك شقيقها الموسيقار الكبير (فريد الأطرش) والشقيق الأكبر فؤاد الأطرش، والمدفن تتصدره صورة فوتوغرافية كبيرة لفريد الأطرش وهو ممسك بعوده الشهير الذي عزف عليه أغنية "لحن الخلود".. ولأسمهان وفريد معجبون كُثر في شتى أنحاء العالم، منهم الكاتب المغربي العربي "أمازيغي الأصل" محمد شكري الذي لم يتعلم القراءة والكتابة إلا وهو ابن العشرين، وعاش حياته صعلوكًا، وكتب روايته الرائعة "الخبز الحافي" وبعض الأعمال التي ترجمت إلى كل اللغات، والتي كشفت للعالم عن عوالم مسكوت عنها، كعالم البغايا والسكارى والمجون والأزقة الهامشية الفقيرة، وتتطرق لموضوعات "محرمة" في الكتابة الأدبية العربية، وقد عاش محمد شكري في مدينة طنجة بالمغرب ولم يغادرها إلا نادرًا، وهناك زاره صديقنا الروائي العماني الراحل

الجميل (علي المعمري)، والذي كان متيمًا بكتابات محمد شكري، ولما علم محمد شكرى - المتيم بصوت فريد وأسمهان - أن (عليّ) يقيم بمصر فقد رجاه أن يحضر له حفنة تراب من قبريهما، وعاد (علي) إلى مصر ليحقق أمنية محمد شكري، وعاونه في ذلك الصديق الشاعر (يوسف وهيب) ودفعا مبلغًا طائلًا، لأن التربي أخبرهما بأنه مؤتمن على هذا التراب المصري حتى لان أخيرًا، ووضع (علي) كل حفنة في جراب صغير كتب عليه اسم المصدر، ثم سافر أمريكا قبل العروج على طنجة لكي يطمئن على زوجته، وكان ذلك في عام 2001 عقب اكتشاف عمليات إرهاب بيولوجي تتم عبر البريد لنشر (الجمرة الخبيثة) واشتبهوا طبعًا في (علي) الشرق أوسطي الذي يحمل مواد غريبة، ولم يشفع له أنه متزوج من أمريكية ولا أنه كان يقيم بأمريكا ولا أنه مدرس بالجامعة الأمريكية في مصر، وكانت مشكلة كبرى انتهت أخيرًا بخير وسمحوا له بالسفر بحفنتي التراب، وقد تهلل وجه محمد شكري وهو يتسلمهما ويقبلهما ويضعهما بجوار سريره، هذا الكاتب العالمي أمازيغي الأصل كان حلمه أن يتلمس حفنة من تراب فنانين أحبهما وأسعده صوتهما.. وبعضهم يسأل: ما ضرورة الفن؟!

(جليل) الأدبِ و(بنداری) عليه

كان الكاتب (جليل البداري) - عليه رحمة اللـه - من ألمع كتّاب الصحافة في خمسينيات وستينيات القرن الفائت، وقد ولد بالقاهرة في عام 1917 وتوفى بها في ديسمبر من عام 1968، وهو أيضًا من كبار الساخرين في كتاباته وفي واقعه، وكان جميع المحيطين به من كتّاب وفنانين يحذرون سلاطة لسانه، وقيل إن السيدة أم كلثوم وهي من زمرة الساخرين أيضًا قد أطلقت عليه محبة له ولخفة دمه (جليل) الأدب و(بنداري عليه) كما هو مذكور في المجلات الفنية الصادرة في تلك العهد، وسبب إطلاقها هذا الاسم سنعود إليه لاحقًا، وقد عمل وكتب في مجالات عدة إضافة إلى الصحافة

فقد كان ناقدًا فنيًا وروائيًا وكاتبًا لسير بعض النجوم ككتابه عن محمد عبدالوهاب (فتى النساء المدلل) وعن عبدالحليم حافظ (جسر التنهدات) كما كتب أيضًا للسينما قصصًا عددًا لا بأس به من الأفلام الشهيرة أشهرها: العتبة الخضرة، بمبة كشر، وداد الغازية، شفيقة القبطية، الآنسة حنفي، الشاطر حسن، وكتب أغنيات لبعض أفلام السينما منها (صورة الزفاف، الشاطر حسن، شهرزاد) ومن أشهر ما غنته له المطربة الكبيرة شادية من أغنيات (سوق على مهلك سوق، يا دبلة الخطوبة، يا سارق من عيني النوم)، وقام أيضًا بإنتاج فيلمين سينمائيين هما: الآنسة حنفى وموعد مع إبليس. ومن مشاكساته الصحفية الشهيرة عندما راجت واشتهرت أغنية "يا اما القمر على الباب" التي غنتها فايزة أحمد للشاعر مرسي جميل عزيز، اتهم جليل البنداري الشاعر مرسي بأنه سرق القصيدة من شاعر قديم نشرها في أوائل القرن، والديوان لحسن الحظ موجود بدار الكتب، ووجدت القصيدة فعلًا في الديوان وسط حيرة الجميع الذي لم يصدق أن الشاعر الكبير مرسي جميل عزيز يفعل ذلك، وبعد البحث والتقصي تبين أن البنداري استعار الديوان من دار الكتب، وفكّكه ثم أضاف إليه ملزمة جديدة من نوع الورق الأصفر نفسه قبل أن يعيده إلى مكانه. وهو الذي سرب هذه المعلومة في النهاية حتى لا تبث تهمة السرقة على مرسي جميل عزيز بينما كل ما أراده هو المداعبة، لكن يد جليل البنداري باطشة وهي

السبب في جعل كوكب الشرق توصمه بهذا اللقب، ويقال - والعهدة على الراوى وعلى صحف ومجلات ذلك الزمان- إنه كان في بيت إحدى الفنانات وفي إطار المداعبة تحداها أن يسبها دون أن تمسك عليه شيئًا، وقبلت التحدي فطلب من الخادمة قطعة قماش قديمة لتلميع حذائه، ثم شطرها نصفين أخذ نصفهما قائلًا: أنا حتة شرموطة وانت.. وقبلما يصدم أحدهم من اللفظ أحب أن أقول إن لفظة (شرموطة) لفظة ليست سيئة الأدب لكننا أصبغنا عليها ذلك دون أن ندري، فأصلها فرنسي هو(charmante) أي الساحرة أو الجذابة، وكان عسكر الفرنساوية عند احتلالهم مصر لا يقابلون أبناء الأسر المصرية المحتجبة في البيوت لكن يقابلون المتحررات من بنات الهوى فيعاكسوهن بكلمة (شرموت) فاعتبرها أولاد البلد كلمة موازية لكلمة داعرة، وهكذا دخلت العامية بالصورة المزرية تلك، كما أن العامة أطلقوا على قطعة الملابس التي تبلى من الاستعمال كلمة شرموطة أيضًا كناية عن الداعرة التي تستهلك جسدها بابتذال فتصبح كالممسحة. يا سبحان اللـه كيف تتحول الكلمات كالنفوس!

يا بيّاعين الفرح

صعوبات الكتابة كثيرة ومتعددة، وأولاها طبعًا عندما تكتب هائمًا بغير هدف أو موضوع، في انتظار أن يرسو بك الوحي على شاطئ ما، وبالنسبة لي أصعبها أن تختزل كتابًا مهمًا أو تكتب عن رجل موسوعى إسهاماته وإنجازاته كثيرة، ولا يصح إغفال ما تيسّر منها، وها أنا أكتب للمرة الثانية عن الموهوب الفذ (جليل البنداري) وهو لمن لا يعرف قدره وأهميته؛ شاعر وصحفي وناقد فني وروائي ومنتج سينمائي، ولد عام 1917 وتوفي عام 1968، وشغل الساحة الفنية وانشغلت به طيلة حياته العملية، وهو من الكتّاب الساخرين العظام، والذي خلفه فيها بعد وفاته

محمد عفيفي وأحمد رجب وعلي سالم وجلال عامر، واشتهر بالتسميات والألقاب التي كان يطلقها على الفنانين فيرددها الناس بعده وتصبح لصيقة بالفنان، فهو الذي أطلق على عبدالحليم حافظ لقب "العندليب" وأطلق على أم كلثوم لقب "معبد الحب" وشبه اللقاء الفني لأم كلثوم بعبدالوهاب في أغنية (إنت عمرى) بلقاء السحاب، وكان بمثابة الفأل الحسن لفنانين أصبحوا نجومًا بعد أن عملوا معه، مثل فيلم "تمر حنة" إنتاج 1957 الذي كان السبب في تألق رشدي اباظة وصعوده إلى منصة نجوم الصف الأول، كما أن فيلم (الآنسة حنفي) الذي كتبه وأخرجه فطين عبدالوهاب عام 1954 يعتبر أول فيلم جريء يناقش عملية التحول الجنسي في الشرق الأوسط إن لم يكن في العالم، وهو عن قصة حقيقية حدثت بمركز (ميت غمر) عام 1947 لفاطمة إبراهيم داوود التي تحولت إلى رجل بمستشفى قصر العيني، وتسمى باسم (علي) وتزوج جارته (فاطمة أحمد): المصدر مجلة المصور مايو 1947، وقد عالج جليل البنداري الواقعة الحقيقية بشكل كوميدي بجعل الرجل هو الذي يتحول، ونجح هذا الفيلم نجاحًا كبيرًا وكان وش السعد على إسماعيل يس، ومن أفلامه الأخرى المستمدة من حوادث حقيقية فيلم (العتبة الخضرة) التي عدلها من قصة ريفي اشترى "ترومواي" العتبة، إلى شراء العتبة كلها بما فيها من أبنية ومصالح حكومية، ويعتبر هذا الفيلم من أهم الأفلام الكوميدية المصرية ولا يزال يضيف ضحكات إلى رصيده

كل يوم.. كتب جليل أيضًا الأغاني الجميلة والخفيفة ومنها "يا دبلة الخطوبة" لشادية و"يا بيّاعين الفرح" لعبدالعزيز محمود و"التمر حنة" لفايزة أحمد و"وأنا مالي يا بوي" لمحمد عبدالمطلب وغيرها، وأنا مغرم بشكل شخصي بأغنية "التمر حنة" التي منها هذه الأبيات (تمر حنة يا تمر حنة خليتي بينا وبعدتي عنا.. الورد كله كسا الجناين واشمعنى إنت اللي شاردة منا)، ومعجب أيضًا بكلمات أغانيه التي تتحدث عن وسائل المواصلات والسرعة والجري مثل "واحدة واحدة بتجري ليه؟" و"سوق على مهلك سوق" لشادية و"يا تاكسي الغرام يا مقرب البعيد" لعبدالعزيز محمود وكذلك الأغنية التي غنتها ليلى مراد (وصلني يا اسطى بسرعة قوام.. في دقيقة مش في سبع تيام.. أنا بدي أقوله كلام ما خطر أبدًا في خيال.. وأعيش وياه ف سلام وهناوة وراحة بال.. ماشي على عشرين دوس على البنزين حصل 90 يا اسطى).. وأتمنى من كتّاب الدراما المغرمين بكتابة سير الفنانين أن يهتموا بمثل هؤلاء الأعلام الذين أثروا حياتنا الفنية ليرى الناس منجزهم ويقتدوا به.

أسمر أسمر طيب ماله!

تأنق وتهندم الأســتاذ ســمير محبوب واصطحب معه أصدقاءه الحميمين واتجه مستبشــرًا إلى بيت الفتاة التي يزمع الزواج منها، وكانت المســألة في ذهنه بمثابة تحصيل حاصل، فقد ذهب محصنًا ومسلحًا بشــهادته العالية ومال وفير يسمح برغد المعيشة وشهرة طنانة فــي ذلك العصر بصفته شــاعرًا وكاتبًــا للأغاني، ويغني له محبــوب الجماهير عبدالحليم حافظ، وفعلًا قوبل مقابلة حســنة وبموافقة شــبه نهائية من الأم والأب وباقي عائلة الفتاة، ولم يتبق غير رأي الفتاة نفسها.

دخلت الفتاة الصالة وقد سـمعت كلامًا جيدًا عن العريس وحان وقـت اللقاء، بمجرد مـا رأته الفتاة ضربت علـى صدرها بيدها وأعلنت رفضها بمنتهى عدم اللياقة بأنه أسـمر! وباسـتنكار كيف يتقدم إليها وهي بيضاء كالقشـطة؟ غير آبهـة بميزان القوة الذي يميل ناحيته من حيث التعليم العالي المتميز والشهرة والتحقق، وقد غضب جدًا الشاعر الغنائي سمير محبوب، وأقسم أمام كل من شهد المشـهد بأنه سـيكتب أغنية عن جمال الأسمر ويجعل أكثر مغنية بيضاء في مصر تغنيها.. وقد كان.. كتب اغنية (اسمر اسمر طيب ماله! ما هو سـماره سـر جماله..) وأصر أن تغنيها صباح، أكثر المغنيات بياضًا في ذلك العصر . ، وتحقق له ذلك.

هذا ما حدث للشـاعر الغنائي المصري (سمير محبوب) والذي يعرف أيضًا باسم سمير محجوب وكان شهيرًا في الخمسينيات من القرن الماضي، وقد بدأت رحلة شهرته متزامنة مع شهرة العندليب الأسـمر عبدالحليم حافظ بنجاح أغنيـة "صافيني مرة" التي كتبها سـمير محبوب وهي الأغنية التي سـاهمت بشكل كبير في تحقيق شـهرة عبدالحليم حافظ عام 1954.. وقد كتب له عدة أغانٍ أخرى أشهرها "يا حلو يا اسمر"، "بتقوللي بكرة" و"طيا مواعدني بكرة"، و"ظالم وكمان رايح تشـكي" كما تغنت بأغانيـه كبار المطربات أمثال صبـاح ومها صبري وفاتن فريد.. كذلـك غنى أيضًا فريد الأطرش من كلماته وصولاً إلى المطرب الاسـتعراضي الثمانيني

عمر فتحي الذي توفى مبكرًا عليه رحمة اللـه.. ولسـمير محبوب أيضًا أغنيـة طريفة عن كرة القدم وقد غنتها المطربة مها صبري وهي أغنية شهيرة اسمها (فيها جون) وكثيرًا ما تذاع قبيل مباريات القمة بين الأهلي والزمالك مع أغنية صباح الكروية الشهيرة (إنت اهلاوي؟ إنت زملكاوي؟.. الاتنين جامدين.. الاتنين حلوين).

وقد بدأ هذا الشاعر حياته العملية كضابط بحري تجاري ثم عمل في الصحافة وذاع صيته جيدًا في منتصف القرن الماضي ورغم ذلك عندما تقدم للزواج من الفتاة التي أعجبته رفضت طلبه بمنتهى الصفاقة وقلة الذوق بحجة أنه أسمر اللون.

وقد حكى سمير محبوب هذه الحكاية المؤلمة في لقاء تم معه بالإذاعة المصرية وأذيع على الملأ، وقد دهشت من رد فعله التلقائي لرد الإهانة التي تلقاها من الفتاة العنصرية.. لأنه صمم أن يتزوج من فتاة أكثر بياضًا منها.. وأهتم بكتابة أغنية تغنيها مطربة لا يختلف على بياضها الشاهق اثنان!.. كأنه في سريرة نفسه استسلم لهذه الفكرة العنصرية!

ورغم أن مجتمعنا العربي والمصري خصوصًا يكاد يخلو من هذه العنصرية البغيضة، فإنها موجودة ولو بشكل ضئيل وتظهر في أوقات الغضب وعند المنافسات القوية.. مثلما تصدر أحيانًا من قلة من جماهير النادي الأهلي ضد اللاعب الموهوب "شيكابالا"

أو تتردد على ألسنة بعض السوقة والدهماء في مناطق العشوائيات عندما يشاهدون (كبل) من العشاق من لونين مختلفين.. وأعتقد أن جزءًا من هذه العنصرية تسرب إليهم من مخلفات السينما العربية في أوائل ظهورها التي كانت تحصر أدوار الفنانين السمر في وظائف الخدم والحراسة وما دونها، وقد ساهم الفنان الكوميدي الكبير (علي الكسار) دون أن ينتبه في ذلك عبر أدواره المسرحية المتسلسلة في (بربري مصر الوحيد) ولأن منتجها كان اليهودي المصري (توجو مزراحي) فقد اتهمه الناقد السينمائي الكبير (أحمد رافت بهجت) بأنه كان يتعمد ذلك لزرع الفرقة بين المصريين وفي رايي أن هذا الكلام فيه مبالغة كبيرة.

هذه العنصريات البغيضة تبدأ صغيرة ثم تنتهي بكوارث لا قبل للإنسانية بها.. ولا أحد منا لا يعرف ما تكبدته الأمة الأمريكية من نتاج هذا الصراع الذي أشعل الحرب بين ولايات الجنوب وولايات الشمال بعدما أطلق الرئيس الأمريكي (لينكولن) إعلان تحرير العبيد في سبتمبر 1862، تلك الحرب التي أدت إلى مقتل 620 ألف جندي أمريكي وعدد غير معروف من الضحايا المدنيين، حتى اتحد الشمال مع الجنوب وصارت بذلك أمة عظيمة.

ودليلنا على ذلك ما يحدث الآن على أرضها من واقع الاضطرابات الأخيرة في بلدة فيرجسون بولاية ميزوري الأمريكية احتجاجًا

على مقتل مراهق أسود برصاص ضابط شرطة أبيض وأثار أسئلة مهمة مثل: لماذا تقتل الشرطة الأمريكية شابًا رفع يده واستسلم؟.. ولماذا التغطية على ضابط سادي تعامل مع المراهق بوحشية وقتله بلا رحمة بالرصاص الحي وادعى بعد ذلك أن المراهق كان يمشي في عرض الشارع ويعطل حركة المرور؟!

ولا أدري إلى أي مدى ستتطور الأحداث هناك؟ لكن أرصد بعض آثار العنصرية المدمرة.. وتفضيل جنس على آخر بدون استحقاق.. ويحضرني حاليًا في بداية تعيين أوباما رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية وما أثار هذا الانتخاب من ضجة عالمية لأنه أول رئيس أسمر للولايات المتحدة وحملات النفاق التي صاحبت هذا الاختيار ومنها ما قاله الملياردير الأمريكي "وارن بوفيه" إن بينه وبين أوباما صلة قرابة؛ حيث اتضح أن لهما جدًا فرنسيًا مشتركًا!.. لأن موقعًا شهيرًا في الأنساب هو Ancestry.com كشف الخبراء فيه أن مارين دوفال الذي هاجر إلى أمريكا عام 1650 هو الجد التاسع لأوباما وفي الوقت نفسه السادس لوارن بوفيه.

كما أكد هذا الموقع أيضًا أن لأوباما جذورًا ألمانية وكذلك له صلة قرابة بالنجم براد بيت ونائب الرئيس الأمريكي الأسبق ديك تشيني!

هذا في فترة شهر العسل.. أما بعد تداعيات المواقف السياسة

المتعارضة بين الروس والأمريكان.. فقد تغير المدح إلى ذم بمنتهى السهولة.. وفي عيد ميلاد أوباما ببلوغه الـ53 عامًا هذا العام، تلقى هدية من مجموعة من شباب روسيا يحملون اسم (مبادرة طلبة موسكو الجامعيين) حين استخدموا جهاز ليزر في عرض يسخر من أوباما أمام السفارة الأمريكية في روسيا، حين ظهر أوباما مرتديًا قبعة الاحتفال بعيد ميلاده فيما يتناول موزة في تشبيه واضح للقرد ومعها عبارة "عيد ميلاد سعيد يا أوباما" كما علقوا لوحة على المبنى المقابل لسفارة الولايات المتحدة في موسكو تظهر أوباما وهو يسد أذنيه ويغطي عينيه وفمه وتحمل عبارة "لا أرى ولا أسمع ولا أتكلم عن الحقيقة"، وكانت هذه اللوحة تحت عنوان 3 قرود حكماء.

ولم يكن لأوباما أنصار يعرفون الأغاني العربية وإلا كانوا قد رددوا أغنية (أسمر طيب ماله.. ما هو سماره سر جماله).

هايدا مانه كشكش.. هايدا تقليد!

زرت يوم الأثنين قبل الماضي الموافق 8 يونيو عام 2015 مقبرة الفنان العظيم نجيب الريحاني في الذكرى الـ 66 لوفاته، مع مجموعة من الأصدقاء وبصحبة ابنته "جينا" وذلك تمهيدًا لإخراجي فيلمًا تسجيليًا عن رحلة بحث "جينا" عن تراث نجيب الريحاني، ومن المتعارف عليه وغير الموثق، أن نجيب الريحاني تزوج من "لوسي دي فرناي" الألمانية بين عامي (1919 - 1937) وأنجب منها "جينا" التي نسبت في الوثائق إلى ضابط ألماني بسبب قوانين هتلر التي كانت تمنع تزوج الألمانيات من الجنسيات الأخرى، وما علينا من صحة هذه المعلومة أو عدمها فتناولي للفيلم يتمحور

حول جهود السيدة جينا في البحث عن التراث المفقود للريحاني والرحلات المضنية إلى ربوع مصر والشام وفرنسا لتحقيق هذا الغرض، وفي الحقيقة لقد استمتعت جدًا بقراءة مذكرات الريحاني التي كتبها ورواها بنفسه منذ بدأ العمل بالمسرح عام 1908 حتى عام 1937 الذي أنهى فيه للأسف مذكراته على وعد استكمالها ولم يتمكن من ذلك، والكتاب يشي بموهبة الريحاني المذهلة في فن السخرية والكوميديا رغم إصراره حتى نهايته بأنه يحب الدراما ودخل مجال الكوميديا بالصدفة، وقد اعتزل الريحاني المسرح عام 1946 بعد أن قدم هو ورفيق حياته بديع خيري 33 مسرحية؛ للأسف لا توجد مسرحية مصورة واحدة له الآن رغم أن عددًا كبيرًا منها تم تمثيله في وجود السينما وكان من الممكن تصويرها بسهولة! كما مثل أيضًا 10 أفلام لم يفقد منها غير اثنين والباقي موجود لحسن الحظ.

ورحلة الريحاني الفنية كانت رحلة شائكة مليئة بالمصاعب والمتاعب الكفيلة بإعاقة أي فنان، لكنه عبرها واجتازها والكتاب يقدم دروسًا مهمة للفنانين الصاعدين أتمنى أن يقرأوه ويحذو حذو هذا الفنان الكبير، فقد جال العالم شرقه وغربه مع فرقته المتواضعة، إذا ما أعيته الحيلة في مصر توجه إلى الشام ليعرض فنونه، ومن العجب العجاب أنه بعد أن اشتهر بشخصية "كشكش بك" وسافر إلى سوريا لعرضها هناك، وجد أن الممثل السوري "أمين عطا اللـه"

الذي كان ممثلًا في فرقته وتركها عندما ضاقت به الأحوال، قد نسخ كل رواياته وشكل فرقة تمثيلية من مواطنيه ويعرض مسرحيات الريحاني هناك على أن الريحاني نفسه، والمصيبة أنهم اعتبروا الريحاني الحقيقي هو المقلد - رغم كل محاولات نجيب الريحاني لإثبات أنه الاصل - وكانوا يسخرون منه ويقولون: هايدا مانه كشكش، هايدا تقليدا!، وانفضوا عن مسرح نجيب الريحاني وراء مواطنهم المقلد "أمين عطا اللـه" لأنهم بناء على كلام الريحاني بذات نفسه في مذكراته " أن القوم هناك يميلون إلى الكوميدي المفتعل، الذي يتمرغ في الأرض ويخبط دماغه في الحيط وقد تعمق "أمين" في هذه الأفاعيل، وعند عودة نجيب الريحاني بعد هذا الإخفاق الشديد، وجد أن المسارح الرخيصة في روض الفرج بدأت تعرض أيضًا مسرحيات مقلدة تحت اسم "كشكش بك الأصلي" ولم يستطع الريحاني أن يفعل معها شيئًا، ولما سافر الريحاني بدا أن اوصدت امامه كل أبواب الفن، مع فرقته إلى أمريكا الجنوبية عبر سفن متهالكة وفي أجواء الحرب العالمية الأولى ووسط الأوبئة، ووصل أخيرًا سالمًا بمعجزة ووجد متعهدًا فنيًا من أصل سوري وافق أن يرعى فرقته، عندما أخبره الريحاني بفخر أنه "كشكش بك" قال له الرجل بريبة "شو ها الحكي! إنت مانك كشكش بك، لأني قابلت كشكش العام الماضي في حمص بالشام"!

ضرورة وجود اللبيسة

اندهــش وانتبه صبي محــل صناعة القباقيب الخشــبية عندما رأى معلمه صاحب الدكان ينتفض ليستقبل رجلًا عجوزًا ويسارع بإجلاســه زاعقًا في طلب الشــاي، وعندما انتهــت الضيافة قدم العجوز صرة مــن القماش لمعلمه الذي أخذهــا بفرحة وهو يقبل كتفي العجوز، والــذي أدهش الصبي أكثر أنه تابع طويلًا العجوز وهــو يرفض بإصرار أخذ نقود من معلمــه وقبلها في النهاية بعد إلحاح، بعد أن أوصل معلمه العجوز وعاد، فتح الصرة أمام صبيه كأنه يرضي فضوله، وأخرج منها سترة جلدية مهترئة عن الصدر والظهــر تتدلى من غطاء جيبها الأعلى شــرائط كانت فيما مضى

ملونة، واحتضن معلمه الســترة وهو يخبر الصبي بأن هذا الرجل كان معلمه فيما مضى عندما كان يعمل مســاعد سقا، وكانت أمنيته ارتداء هذه السترة والسير بها بخيلاء كمعلمه، لكن بعد أن توسعت شــركة المياه في إنشاء الصنابير العمومية قلت الحاجة إلى السقاة، فهجر هذه المهنة إلى صنع القباقيب، وأنه بحكم العشرة كان كثيرًا ما يتردد على معلمــه القديم ليقنعه بتغيير مهنته، لكنه كان يرفض لأنه كان مؤمنًا بأن مهنة "الســقا" لن تنتهي أبدًا، ثم أضاف صانع القباقيب بزهو: الحمد للـــه لأن الصلاة والوضوء هيفضلوا لنهاية الدنيا.. والناس حتحتاج القباقيب على طول.. احمد ربنا يا بني إنك اخترت المهنة الصح.

مهنة السقا ظلت في مصر لأكثر من ثلاثة قرون، وكانت مهمتهم تزويد السكان بماء النيل بسبب ملوحة مياه الآبار، وكانت القربة التي يملأونها بالمياه ويحملونها على البغل تصنع من جلد الماعز، أما "زق" الماء الصغير المعروف بـ"الري" ويحملونه على ظهرهم لسقاية الناس فيتكون من كيسين كبيرين من جلد الثور، والقربة مزودة بـ"بزبوز" نحاسي طويل لصب المياه في قدح نحاسى لسقاية العابرين، وكانت هناك اختبارات لا بد أن يجتازها السقا حتى يسمح له بالسقاية، ومنها أن يستطيع حمل قربة وكيس مليء بالرمل يزن حوالي 40 كيلو لمدة ثلاثة أيام لا يسمح له فيها بالاتكاء أو الجلوس أثناء سيره، ولا بد أن يتصف السقا بالأمانة

وأن يكون حريصًا على عدم تلويث النهر، ويشترط أن تكون القربة غير مصبوغة حتى لا تلوث ألوانها المياه، وقد بدأ احتضار مهنة السقا في عام 1865 بإنشاء شركة المياه التي استخدمت آلات الضخ ومدت القاهرة بأنابيب المياه.

لم يعلم صاحب محل قباقيب الخشب بأن مهنته ستنتهي بعد فترة صغيرة عندما حلت الشباشب البلاستيك بدلًا من القبقاب، وقد انتهت بعدها مهن أخرى ومصنوعات كانت مهمة في زمنها، فمثلًا تذكرت مؤخرًا "الليسة" الأحذية التي كنا ندس معلقتها الكبيرة خلف الكعب حتى يسهل علينا ارتداء الحذاء، وكانت فيما مضى تصنع من العاج أو العضم للأثرياء، ومن المعدن الرخيص ثم البلاستيك للعامة، وقد اندثرت تمامًا الليسة أو كادت، وقد شاركت مؤخرًا في مهرجان ثقافي لمؤسسة ثقافية اسمها (دوم) التي أسسها بعض الكتاب ومنهم خالد الخميسي وسحر الموجي، وأقيم المهرجان بالمنصورة بمشاركة بعض الكتاب والفنانين ومنهم محمود الحديني وأشرف عبدالغفور ومحمد وفيق وخالد الذهبي وحنان مطاوع ومنال سلامة ولقاء الخميسي وسميرة عبدالعزيز وكوكبة أخرى، وقرأ الفنانون بعض الأعمال الإبداعية للكتاب المشاركين ولنجيب محفوظ في ذكرى ميلاده، وكان الحضور كبيرًا والسبب طبعًا أن الناس أتت خصيصًا لرؤية هؤلاء الفنانين والتقاط الصور معهم، وهذا جميل في حد ذاته باعتبار أن هذه حيلة لجذب الجمهور غير

المهتم بالأدب، المهم أن ممثلًا شهيرًا لم يحضر مع أن اللافتات في كل مكان كانت تعلن عن حضوره، وما أذكره لهذا الفنان دور زعيم تتري مغولي، وكانت أغلب مشاهده جالسًا إلى مائدة عامرة بالطعام وهو يزأر ويفتك بفخذ خروف أو جاموس، وكنت أخاف أحيانًا ألا يشبع فيمد يده إلى عشائي البسيط المكون من "صباعين بقسماط وحتة جبنة النستو".. المهم لما سألت عن أسباب تغيبه عن المهرجان الثقافي، قالوا لي إنه طلب غرفة إضافية في الفندق لـ"اللبيسة "بتاعته وأخبروني أنها السيدة التي تلبسه ملابس الدور الذي يمثله في المسرح والسينما، ولأنه المهرجان مقام بالجهود الذاتية، اعتذروا عن عدم تلبية طلبه، فلم يحضر هو ولا اللبيسة، وأنا مفهمتش بصراحة ضرورة وجود اللبيسة بينما حضرته لن يمثل!.

هاتوله حبيبه

المطرب "عبده الحامولي" من أبرز أسماء عالم الطرب الشرقي في القرن التاسع عشر، وهو من مواليد بلدة (حامول) التابعة لمركز منوف بمحافظة المنوفية، وقد ولد فيها عام 1836 وتوفي بالقاهرة عام 1901 وقبيل وفاته بسنوات قليلة سجل بعض أعماله على أسطوانات شمعية - في بدايات فكرة التسجيل -إلا أن رداءتها لم تسمح بانتشارها الواسع، ومن سوء الحظ أن معظم أعماله لم تعد موجودة والباقي لا يكشف عن خامة صوته الذهبي، كما أن الفيلم السينمائي (ألمظ وعبده الحامولي) الذي قدمته السينما المصرية عنه في الستينيات؛ بطولة عادل مأمون ووردة الجزائرية، أسقط

أغلب أعماله الفنية وقدم بعضها بألحان مستحدثة مما فرّغ تراثه من مضمونه، وكذلك المسلسل الذي قدمه التليفزيون بعنوان (بوابة الحلواني) وأسند دور المطرب "عبده الحامولي" إلى المطرب "علي الحجار" ودور المطربة "ألمظ" زوجة عبده الحامولي إلى المطربة "شيرين وجدي"، وطبعًا (إيش جاب لجاب)! وقد غنى ولحن لكبار شعراء عصره مثل البارودى وإسماعيل صبري وعائشة التيمورية، ومن أوائل من لحنوا قصيدة "أبوفراس الحمداني" أراك عصيّ الدمع، وقد أعجب به الخديو إسماعيل وألحقه بحاشيته واصطحبه إلى الأستانة ليستمع ويدرس الموسيقى التركية فاستطاع بعدها أن يقدم ألحانًا تجمع بين الطابعين المصري والتركي فيما أطلق عليه الموسيقى الشرقية. وكانت قصة الحب بين عبده الحامولي وألمظ من قصص الحب الملتهبة وألمظ اسمها الحقيقي "سكينة"، وشبه النقاد صوتها بالألماظ من شدة نقائه فأطلق عليها هذا الاسم، وبدأت قصة الحب بمنافسة تقليدية بين المطربين، وكان من مظاهر هذا التنافس المداعبات الغنائية، حيث كانت ألمظ تغني أغنية في (الحرملك) فيرد عليها الحامولي من (السلاملك) بأغنية أخرى؛ ومنها عندما غنت ألمظ (ياللي تروم الوصال وتحسبه أمر ساهل.. دا شيء صعب المنال وبعيد عن كل جاهل) ورد علها الحامولي (روحي وروحك حبايب من قبل دا العالم.. والله).. كما ذكر الأديب الكبير "أحمد أمين" في كتابه (فيض الخواطر)، ومن أشهر أغاني الست ألمظ (لازم أهشه دا

العصفور.. وأنكشله عشه دا العصفور.. وابن الأكابر والعصفور.. ع العشق صابر دا العصفور.. طار وعلا وعلا وطار.. ونزل على بيت العطار.. وكبش ملبّس وادّاني ولوز مقشر وعطاني.. لازم أهشه دا العصفور). ومن أشهر أغاني "عبده الحامولي" أغنية كنت فين والحب فين، وأغنية اللـه يصون دولة حسنك.. ومن أجمل ما قرأت عن تأثير أغاني "عبده الحامولي" مقال إلكتروني للجميل "حمدي عبدالرحيم" عن كتاب الجميل بزيادة "صلاح عيسى" (تباريح جريح).. يقول فيه "حشد من الفلاحين والعمال والصيع والمثقفين وأنصافهم والسهارى والمتشوقين إلى النشوات السامية يجلسك صلاح عيسى معهم، وأنت وما تحب، إن شئت رأيت اللورد كرومر وهو يستمع إلى سي عبده الحامولي الذي تسلطن فأخذ يعيد ويزيد وهو يغني (هاتولي حبيبي) ومرت ساعة ثم ساعتان وسي عبده يغني جملة واحدة هي (هاتولي حبيبي) ففاض الكيل باللورد كرومر وقال للوزير صاحب الحفل، ترجم لي أغنية سي عبده، فلما ترجمها الوزير، صاح اللورد: (ولماذا لا ترسل أحد خدمك لكي يأتي لابن الكلب هذا بحبيبته حتى أذهب إلى فراشي وأنام).

المؤلف في سطور

مكاوى سعيد

- خريج كلية التجارة -جامعة القاهرة - دفعة 1980.
- تفرغ للكتابة منذ عام 1990.
- أديب وكاتب بجريدة المصري اليوم، وله العديد من الكتابات بالصحف والمجلات المصرية والعربية مثل الأهرام والتحرير والقاهرة واخبار الادب ومجلة الثقافة الجديدة وابداع، وجريدة الحياة اللندنية والقدس العربي ومجلة العربي الكويتى والدوحة ونزوى، ومن ضمن هيئة تحرير مجلة "الكتابة الأخرى" التى أسست عام 1995، وتعد من أهم المجلات الثقافية المستقلة بمصر. عمل أيضا لأكثر من ثمانى سنوات مستشارًا تمويليا متطوعا فى جمعية "الزهيمر مصر" ومقرها بكلية الطب النفسي بجامعة عين شمس، وهى جمعية متخصصة فى تقديم العون لأسر مرضى ألزهيمر ومرضى "الدمينشا" (خرف الكبار) وتأهيل وتدريب هذه الأسر لمساندة المرضى والعمل على إعادة تأقلمهم مع الحياة ومنع تدهور حالتهم.
- كما يشارك ويساهم فى :

Developing Capacity of special needs children through unconventional educational programs

صدر للكاتب

- الركض وراء الضوء، مجموعة قصص، 1981، (دار النديم).
- فئران السفينة، رواية، 1991، (ست طبعات)، (الدار للنشر والتوزيع).

- **حالة رومانسية**، مجموعة قصصية، 1992، (نشر خاص).
- **راكبة المقعـد الخلفى**، مجموعة قصصيـة، 2001، (الهيئة العامة للكتاب).
- **تغريدة البجعة**، رواية، 2007، (عشر طبعات)، (الدار للنشر والتوزيع).
- **تغريدة البجعة**، رواية، 2008، (طبعتان)، (دار الآداب - بيروت).
- **تغريدة البجعة**، رواية، 2014، (طبعتان)، (الدار المصرية اللبنانية).
- **سرى الصغير**، مجموعة قصص، 2008، (كتاب أخبار اليوم).
- **ليكن في علم الجميع سأظل هكذا**، قصص، 2009، (الهيئة العامة لقصور الثقافة).
- **غرفة لم يدخلها رجل**، مختارات قصصية، 2012، (المجلس الأعلى للثقافة).
- **اللامرئيون**، مجموعة قصصية، 2013، (الهيئة العامة للكتاب).
- **البهجة تحزم حقائبها**، مجموعة قصصية، 2013، (دار نون).
- **أن تحبك جيهان**، رواية، 2015، (3 طبعات)، (الدار المصرية اللبنانية).

كتب ونصوص ابداعية

- **مقتنيات وسط البلد**، كتاب عن الشخصيات والأماكن، 2010، (دار الشروق).
- **قرص الشمس الذى أشعل الثورة**، نصوص، 2013، (الهيئة العامة لقصور الثقافة).
- **أحوال العباد**، كتابة خارج التصنيف، 2013، (دار نون).
- **كراسة التحرير**، نصوص ووقائع الثورة المصرية، 2014، (الدار المصرية اللبنانية).

الجوائز الأدبية والتكريمات العربية والدولية

1 - الجائزة الأولى للرواية - مسابقة د سعاد الصباح للإبداع العربي عام 1991 عن رواية فئران السفينة.

2 - القائمة القصيرة لجائزة بوكر الدولية للرواية العربية - عام 2007 عن رواية تغريدة البجعة.

3 - جائزة الدولة التشجيعية فى الرواية عام 2008 عن رواية تغريدة البجعة.

4 - جائزة اتحاد الكتاب لأفضل مجموعة قصصية عام 2009 عن المجوعة القصصية "ليكن فى علم الجميع سأظل هكذا".

5 - تكريم من نادي القضاء المصري عن التميز الادبي عام 2008.

6 - تكريم من ساقية الصاوي لأفضل كتاب العام عام 2008.

7 - تكريم من مهرجان طيران الامارات للآداب عام 2008.

8 - تكريم من معرض تونس الدولي للكتاب عام 2009.

9 - تكريم من مهرجان برلين الدولى للآداب عام 2009.

10 - جائزة معرض القاهرة الدولى للكتاب عام 2013 فى القصة القصيرة عن مجموعة (اللامرئيون).

11 - الجائزة الاولى فى القصة للكبار "جائزة ساويرس" عن عام 2013 عن مجموعة البهجة تحزم حقائبها.



وأنا غض غرير، على رأي شاعر المهجر إيليا أبوماضي في قصيدته الشهيرة (لست أدري)، التي غناها العندليب الأسمر عبدالحليم حافظ في فيلم "الخطايا"، كنت ا...وات لا أذكر عددها أقف متسمرًا قبالة محل كبير للأثاث الفاخر في شارع قصر العيني بالقرب من منزلي، لم يكن وقوفي لتأمل محتويات المحل تمهيدًا للشراء والاقتناء، فلا سني ولا إمكانياتي الإدراكية كانت تسمح لي بالتفكير في الأثاث والمستلزمات المنزلية أصلًا، لكني كنت أحدق عاليًا تجاه لافتة المحل، ثم أكمل سيري بضع خطوات مبتعدًا عن المحل، وأعود مرة أخرى إلى أن ينتبه أحد عمال المحل لصبيانيتي فيتحرك من غور المحل تجاهي أو يوهمني بذلك فأسرع الخطى ثم أعيد الكرة مرة أخرى.

كانت اللافتة الضخمة المثبتة فوق باب المحل التي تشغلني، مكتوبًا عليها بالحروف التي تعلمتها حديثًا في المدرسة "ماهوجني"، وهو نوع من الخشب اختاره صاحب المحل عنوانًا لمنتجاته - كما عرفت بعد سنوات - وهذا العنوان كان يثير خيالي جدًا، لأن الخطاط الذي كتب هذه اللافتة يبدو أن ميولًا استعراضية كانت لديه، وقد رأى أن هذه الكلمة البسيطة لن تسمح له بالإعلان عن موهبته لذا قرر أن يترك مسافة صغيرة بين كل حرفين، فصارت الكلمة هكذا "ما هو جني".



